مجلس العدالة

إدجار والاس

مجلس العدالة

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
محمد حامد درويش

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

مجلس العدالة

إدجار والاس

The Council of Justice

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٣٣ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٨
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
The Council of Justice/Edgar Wallace; this work is in the public domain.

المحتويات

١- منظمة «المائة الحُمر» ٧
٢- رجال العدالة الأربعة ١٩
٣- جيسين، الشهير باسم لونج ٢٩
٤- الفاصولياء الحمراء ٣٩
٥- مجلس العدالة ٤٩
٦- الأميرة الثائرة ٥٩
٧- الحكومة والسيد جيسين ٦٧
٨- حادث عارض أثناء القتال ٧٣
٩- رجال العدالة الأربعة في مواجهة المائة الحمر ٧٩
١٠- المحاكمة ٨٥
١١- مانفريد ٩٥
١٢- في سجن واندزورث ١٠٣
١٣- «المؤمنون العقلانيون» ١١٣
١٤- في محكمة أولد بيلي ١١٩
١٥- تشيلمسفورد ١٣١
١٦- الإعدام ١٤٣

الفصل الأول

منظمة «المائة الحُمر»

ليس من حقك ولا من حقي أن نحكم على مانفريد وأعماله. أقول «مانفريد»، مع أني كان من الممكن أيضًا أن أقول «جونزاليس»، أو في هذا الصدد «بويكارت»؛ إذ إنهم مذنبون أو عظماء بالقدر نفسِه على ضوء رؤيتك لأفعالهم. من شأن أكثرنا خروجًا عن القانون أن يتردد في الدفاع عنهم، لكن لا يُمكن لأعظمنا إنسانيةً أن يُدينهم.

من وجهة نظرنا، نحن الذين نعيش في ظل القانون، ونُمارس شئوننا بما يتوافق مع القوانين، ونلتزم بالمضي بلا نقاش يسارًا أو يمينًا حسبما تُوجهنا الشرطة — كانت وسائلهم مريعة، وبلا مبرر، ومثيرة للاشمئزاز.

لا يُؤثر كثيرًا على المسألة أننا ندعوهم مجرمين؛ إذ لا توجد كلمة أفضل من ذلك. فمن شأن ذلك أن يكون إجماع البشرية، لكنني أظن — بل أعرف — أنهم لا يُبالون بآراء الجنس البشري. أشك كثيرًا في أنهم توقَّعوا من الأجيال القادمة أن تُكرمهم.

كان الإجراء الذي اتخذوه تجاه وزير الحكومة هو القتل، ببساطة شديدة. ومع ذلك، على ضوء المشكلات الإنسانية الكبيرة المتعلقة بالأمر، من الذي سيصف هذا الإجراء بأنه شرير؟

بصراحة، ما أقوله عن الرجال الثلاثة الذين قتلوا السير فيليب رامون، والذين قتلوا بلا رحمة باسم العدالة، هو أنني متعاطف معهم. توجد جرائمُ بلا عقوبة كافية لها، وتوجد أفعال مُجَرَّمة لا تستطيع آلية القانون المكتوب أن تمحوَها. وهنا يكمن مبرر «رجال العدالة الأربعة» أو «مجلس العدالة»؛ إذ صاروا يُطلقون على أنفسهم حاليًّا مجلسًا من أشخاص ذوي عقليات عظيمة، وبلا أحاسيس.

ولم يمضِ وقت طويل بعد وفاة السير فيليب، وبينما كانت أصداء ذلك العمل البطولي ما زالت تتردد في إنجلترا، حتى قاموا بإجراء أو مجموعة من الإجراءات التي لم تنَل نوعًا

من القَبول غير الرسمي من حكومة بريطانيا العظمى فحسب، وإنما من حكومات أوروبا، وتحققت رغبة فالموث. ففي هذه المرة شنوا حربًا على مجرمي حرب كبار؛ استنفروا قوتهم، ودهاءهم، وعقولهم الرائعة في مواجهة أقوى منظمة سرية، في مواجهة خبراء قدامى في فنون الشر، وعقول تُضاهيهم ذكاءً.

كان يومًا مشهودًا من أيام منظمة المائة الحمر. كان المجلس الدولي العجيب مجتمِعًا في لندن، وكان أولَ مجلس كبير للأناركية (اللاسلطوية) المعترَفِ بها. لم يكن اجتماعًا في الخفاء لرجال متعجلين يتكلمون خِلْسة، وإنما كان اجتماعًا علنيًّا وبلا خوف في وجود ثلاثة من رجال الشرطة معيَّنين خِصِّيصى لأداء مهمَّة خارجَ القاعة، وحاجب ليأخذ التذاكر عند البَهْو الخارجي، وكاتب اختزال لديه إلمامٌ باللغتَين الفَرنسية واليديشية ليُسجل ملاحظاتٍ بأبرز ما يُقال.

كان المجلس العجيب حقيقة واقعة. عندما طُرِح أمره في السابق ضحك أناسٌ من الفكرة؛ وكان منهم نيلوف من فيتبسك؛ لأنه لم يظنَّ أن تلك العلنية كانت ممكنة. لكن بيتر الصغير (كان له اسم سخيف هو كونوبلانيكوفا، وكان مراسلًا في الشئون المتعلقة بما يُسمَّى «روسكوي زنامزا») — بيتر الصغير هذا، الذي كان قد فكر في الأمر برُمَّته، وكان صاحب فكرة حشد مؤتمر لمنظمة المائة الحمر في لندن، واستأجر القاعة وأصدر الفواتير (التي كانت تحمل في الزاوية اليُسرى العليا مثلث منظمة «المائة» المقلوب) طالبًا من أولئك الروس في لندن المهتمين ببناء مقرِّ البحَّارة الروس أن يتقدموا للحصول على التذاكر، وهو أيضًا من وفر قاعة كان التشويش فيها مستحيلًا — كان سعيدًا؛ أجل، أيها الإخوة الصغار، كان يومًا عظيمًا لبيتر.

قال بيتر الصغير بحماس: «يُمكنك دومًا أن تخدع الشرطة. ادعُ إلى اجتماع بهدف خيري وهكذا يتحقق الأمر!»

كتب المفتش فالموث إلى مساعد مفوض الشرطة:

> وصلتني رسالة سيادتكم. الاجتماع الذي سيُعقَد الليلة في قاعة فينكس، بشارع ميدلسكس، إي، بهدف جمع تمويلات لمقرِّ البحَّارة الروس، هو، بالطبع، أول مجلس دولي لمنظمة المائة الحمر. لن أتمكَّن من إدخال رجل إلى الداخل، ولكن لا أظن ذلك مهمًّا للغاية؛ لأن الاجتماع سينشغل بإلقاء المجتمعين الزهور أحدهم على الآخر ولن يبدأ العمل الجدِّي حتى اجتماع اللجنة الداخلية. مُرْفَق طيَّه قائمة بالرجال الذين وصلوا بالفعل إلى لندن، وأتشرف بأن أطلب أن تُرسل لي صورًا للرجال المذكورين أدناه.

كان يوجد ثلاثة مبعوثين من بادن، السيد شميدت من فرايبورج، والسيد بلومو من كارلسروه، والسيد فون دونوب من منهايم. لم يكونوا شخصياتٍ ذاتَ حيثية، حتى في أعين عالم الأناركية؛ لم يكن بهم ما يَلفت الانتباهَ على نحو خاص؛ لذا بات الأمر الغريب الذي حدث لهم ليلة انعقاد المجلس جديرًا تمامًا بالملاحظة.

كان السيد شميدت قد غادر النُّزُل الذي كان مقيمًا فيه في بلومزبري، وكان يمضي مسرعًا جهة الشرق. كانت أمسية في أواخر الخريف وكان مطر بارد يتساقط، وكان السيد شميدت يُناقش في عقله ما إذا كان ينبغي أن يتَّجه مباشرة إلى مكان اللقاء حيث كان قد وعد بلقاء مواطنَيه، أو ينبغي أن يطلب سيارة أجرة ويتجه مباشرة بالسيارة إلى القاعة، عندما أمسكَت يدٌ بذراعه.

استدار بسرعة ووضع يده في جيبه. وقف رجلان خلفه ولكن الميدان الذي يعبره بدا لهما خاليًا.

قبل أن يتمكَّن من الإمساك بمسدسه من نوع براونينج، قبض أحدهم على ذراعه الأخرى وتكلم أطولُ الرجلَين.

سأله: «أنت أوجستس شميدت؟»

«ذاك هو اسمي.»

«هل أنت أناركي؟»

«ذاك شأني.»

«هل أنت الآن في طريقك إلى اجتماع لمنظمة المائة الحمر؟»

اتسعَت عينا السيد شميدت في ذهول حقيقي.

تساءل: «كيف عرَفت ذلك؟»

جاءته الإجابة سريعًا: «أنا المفتش سيمبسون من سكوتلاند يارد، وسأُلقي القبض عليك.»

سأله الألماني: «بأي تهمة؟»

«سأُخبرك بذلك لاحقًا.»

هزَّ الرجل القادم من بادن كتفَيه.

«لم أكن أعرف أن اعتناق الآراء جريمة في إنجلترا.»

دخلت سيارةٌ مغلقةٌ الميدان، وصفَّر أقصر الرجلَين فاقترب السائق من المجموعة.

استدار الأناركي إلى الرجل الذي قبض عليه.

قال بغضب شديد: «أُحذرك من أنك ستخضع للمساءلة من أجل هذا. لديَّ ارتباط مهم جعلتني أفوته بسبب حماقتك و...» قاطعه الرجل الطويل باقتضاب قائلًا: «ادخل!»

دخل شميدت السيارة وأُغْلِق الباب بقوة من خلفه.

كان بمفرده في الظلام. تابعت السيارة سيرها وعندئذٍ اكتشف شميدت أنه لم تكن ثمة نوافذُ في السيارة. راودته فكرة جامحة أن بإمكانه الهربَ. حاول فتح باب السيارة؛ ولكنه كان جامدًا. دق عليه بحذر. كان مبطنًا بصفائحَ رقيقة من الفولاذ.

تمتم وهو يسب: «سجن على عجلات.» وانزوى عائدًا إلى ركن السيارة.

لم يكن يعرف لندن؛ لذا لم يكن لديه أدنى فكرة عن الوجهة التي كان ذاهبًا إليها. لمدة عشر دقائق تابعت السيارة تحركها. كان متحيرًا. لم يكن رجلا الشرطة هذان قد أخذا منه أي شيء، وكان لا يزال محتفظًا بمسدسه. لم يُحاولوا حتى أن يُفتشوه بحثًا عن وثائق إثبات. ولم يكن بحوزته أيُّ وثائق، عدا تصريح الدخول للمؤتمر و... الكود الداخلي!

بحق السماء! لا بد أن يُتلفه. دس يده في الجيب الداخلي لمعطفه. كان خاليًا. كانت الحافظة الجلدية الرفيعة قد اختفت! علا وجهَه الشحوب، فمنظمة المائة الحمر لم تكن تنظيمًا سريًّا خياليًّا، بل منظَّمة ذات فكر دموي، ورحمتها بالحمقى من أفرادها أقلُّ من رحمتها بأعدائها اللدودين. في ظلام السيارة الحالك تحسست أصابعه جيوبه كلَّها. لم يكن ثمة شكٌّ على الإطلاق في أن الأوراق قد اختفت.

أثناء بحثه في جيوبه توقفت السيارة. استل المسدس المسطَّح من جيبه. كان موقفه ميئوسًا منه ولم يكن بالرجل الذي يتهرب من المخاطرة.

ذات مرة باع أحد الإخوة من منظمة المائة الحمر كلمة سر للشرطة السرية. وهرب الأخ من روسيا. كانت ثمة امرأةٌ متورطة في الأمر، وكانت القصة عبارةً عن قصة صغيرة وضيعة لا تستحق أن تُروى. كل ما حدث أن الرجل والمرأة هربا، وذهبا إلى بادن، وتعرَّف شميدت عليهما من الصورتَين اللتَين كان قد تلقاهما من مركز القيادة، وذات ليلة، أنت تفهم أنه لم يكن ثمة أيُّ مهارة أو براعة في الأمر. كانت الصحف الإنجليزية ستصف الأمر بأنه «جريمة قتل مقززة»؛ لأن تفاصيل الجريمة كانت صادمة إلى حد كبير. الأمر الذي كان في صالح شميدت في سجلات التنظيم هو أن القاتل لم يُكتَشَف.

عادت ذكرى هذه الواقعة تجول برأس الأناركي عندما توقفت السيارة؛ ربما كان هذا هو الأمر الذي اكتشفته الشرطة؟ من زوايا عقله المظلمة أتى المشهد مجددًا، وصوت الرجل وهو يقول: «لا تفعل! لا تفعل! بحق المسيح! لا تفعل!» وتَعَرَّق شميدت.

فُتِح باب السيارة وأزاح غطاء مسدسه بهدوء مجددًا.

قال صوت هادئ في العتمة بالخارج: «لا تُطلق النار، ها هنا بعض من أصدقائك.»

خفض مسدسه؛ إذ التقطت أذناه الذكيتان صوتَ سعال مصحوبًا بأزيز.

صاح في ذهول: «فون دونوب!»

قال الصوت نفسه: «والسيد بلومو. ادخلا أنتما الاثنان.»

دخل رجلان السيارة وهما يتخبطان، وكان أحدهما مذهولًا ولم ينبس بصوت — عدا صوت السعال المصحوب بالأزيز — بينما كان الآخر يسبُّ ويلعن وطلق اللسان.

زمجر بلومو قائلًا: «انتظر، يا صديقي! انتظر! سأجعلك تندم.»

أُغْلِق الباب وتابعت السيارة مسيرها.

راقب الرجلان اللذان كانا في الخارج السيارة وهي تختفي بركَّابها التعساء منعطِفةً عند ناصية، ثم سارا ببطء مبتعدَين.

قال الرجل الأطول: «رجال استثنائيون.»

أجاب الآخر: «للغاية.» ثم أضاف: «فون دونوب، أليس هو؟»

«الرجل الذي ألقى بالقنبلة على الرئيس السويسري، أجل.»

ابتسم الرجل الأقصر في الظلام.

ثم قال: «إذا اعتبرنا أن لديه ضميرًا، فإنه يُكابد ساعته.»

سار الرجلان في صمت وانعطفا إلى شارع أوكسفورد عندما كانت ساعة الكنيسة تدق معلنةً أنها الثامنة.

رفع الرجل الأطول عصا السير خاصته، فتوقفت عند الرصيف سيارةُ أجرةٍ كانت تمشي على مهل.

قال: «محطة ألدجيت.» واتخذ الرجلان مقعدَيهما في سيارة الأجرة.

لم يتكلم أيٌّ من الرجلَين حتى التفَّت سيارة الأجرة لتدخل شارع نيوجيت، عندئذٍ سأل أقصرهما:

«أتُفكر بشأن المرأة؟»

أومأ الآخر برأسه فعاد رفيقه إلى الصمت؛ ثم تكلم مجددًا:

«إنها تُمثل مشكلة وصعوبة، بطريقة ما؛ لكنها أخطرهم جميعًا. والمدهش في الأمر أنها لو لم تكن جميلة وشابة لما كانت ستُمثل مشكلة على الإطلاق. نحن نسلك مسلكًا بشريًّا محضًا، يا جورج. الرب جعلنا غير منطقيِّين بحيث لا تتداخل صغائر أمور الحياة

مع المخطط الكبير. والمخطط الكبير هو أن بهائم الرجال ينبغي أن يختاروا بهائم النساء ليصرن أمهاتٍ لأطفالهم.»

اقتبس الآخر مقولة باللاتينية: «السم يُتَجَرَّع في كئوس من ذهب.» وهو ما يُبين أنه كان مفتشًا استثنائيًّا، ثم أضاف: «وبالنسبة لي لا يعنيني إن كان القاتل الطائش امرأة جميلة أو زنجيًّا مشوَّه الخِلقة.»

صرفا سيارة الأجرة عند محطة ألدجيت وانعطفا إلى شارع ميدلسكس.

كان ملتقى المؤتمر الكبير هو قاعة شيدها في الأصل رجال مسيحيون متحمسون كانت نقطة ضعفهم هي هداية اليهود إلى الكنيسة المشيخية الجديدة. ولهذا الهدف المحمود افتُتِحَت باحتفال مهيب وغناء لأناشيد وتحدث المُبَشِّر المتحمس بتلك المناسبة لساعتَين وأربعين دقيقة حسب الساعة.

بعد جهد دام اثنَي عشر شهرًا اكتشف الرجال المسيحيون أن مميزات المسيحية لا تستميل إلا اليهود ذوي الثراء الفاحش بالفعل، تستميل آل كوهين الذين يتحولون إلى آل كوان، وآل إيزاك الذين يتحولون إلى آل جراهام، واليهود الفضوليين من الطبقات الدنيا الذين تُماثل علاقتُهم بإخوتهم علاقةَ «كفار جنوب أفريقيا البيض» بالمجتمع الأوروبي.

وهكذا انتقلت القاعة من مالكٍ إلى مالك، وإذ فشلت في الحصول على ترخيص بالموسيقى والرقص، عادت إلى مرحلة قاعة التبشير.

كانت الأجيال اللاحقة من الصِّبية الصغار قد دمرَت نوافذها ولوَّثت حوائطها. كانت ملصقاتُ الحوائط قد لوَّنَت وجهها الأبيض. الليلة لم يكن يوجد أي شيء يوحي بأن ثمَّة أيَّ شأن ذا أهمية غير عادية يجري في داخلها. لا يُثير اجتماع لمِّ شمل روسي أو يديشي اهتمامَ شارع ميدلسكس كثيرًا، ولم يكن من شأن إعلان بيتر الصغير بجُرأة أن مجلس منظمة المائة الحمر سيجتمع هناك بكامل هيئته أن يُثير أي اهتمام محلي، وفي الحقيقة، ربما كان سيظلُّ يحصل على خدمات رجال الشرطة الثلاثة والمفوض.

لهذا السيد الفاضل، المهندم، نظيف الهيئة، الذي يضع على صدره ميداليات إغاثة حملات شيترال والسودان، سلَّم الرجلان النصفَين المثقبَين لتذكرتَيهما وعبَرا البهو الخارجي إلى غرفة صغيرة. أمام باب في الطرَف الآخر وقف رجل رفيع له لحية غير مشذبة. كانت عيناه حمراوَين وواهنتَين، وكان يلبس حذاءً ضيقًا طويل الرقبة ذا أزرار، وكان رأسه يميل إلى الأمام وعلى الجانبَين مثل دجاجة فضولية.

تساءل، متحدثًا بلغة ألمانية مثل شخص غير معتاد على اللغة، قائلًا: «هل معكما الكلمة، أيها الأخَوان؟»

رمق أطولُ الرجلَين الغريبَين الحارس بنظرة سريعة استوعبت السائل من حذائه الجلدي طويلِ الرقبة المتشقق اللامع وحتى سلسلة ساعته المبهرجة. ثم أجاب بلغة إيطالية:

«لا شيء!»

غمر السرورُ وجه الحارس لدى سماعه للغة مألوفة.

«مر، أيها الأخ؛ إنه لمن الرائع أن أسمع تلك اللغة.»

صدم هواءُ القاعة المزدحمة الرجلَين في وجهَيهما مثل ضربة من مدمرة. كان غيرَ نظيف؛ غير صحي، كرائحة مأوًى للمشردين في الصباح الباكر.

كانت القاعة ممتلئة، والنافذة مغلقة وتُغطيها الستائر، وكإجراء احترازي، كان بيتر الصغير قد وضع ملاءاتٍ سميكةً أمام مراوح التهوية.

في أحد طرَفَي القاعة كانت توجد مِنصة وُضِعَت عليها مقاعدُ على هيئة نصف دائرة، وفي المنتصف طاولة تكتسي بغطاء أحمر اللون. وعلى الحائط خلف المقاعد — التي كانت كلها مشغولة — كان يوجد علم أحمر ضخم يحمل في المنت صف حرف «سي» أبيض كبير. كان مثبتًا في الحائط، ولكن أحد أركانه كان منفصلًا كاشفًا عن جزء من لفيفة عمال التبشير المطلية:

... لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ.

شق الدخيلان طريقهما عبر مجموعة كانت محتشدة عند الباب. كانت توجد ثلاثة ممرات تمتد بطول المبنى، وشقَّا طريقهما عبر الممشى المركزي ووجدا مقعدَين بالقرب من المنصة.

كان أحد الإخوة يتكلم. كان عاملًا جيدًا ومتحمسًا لكنه كان خطيبًا سيئًا. تحدث بالألمانية وأفصح عن بديهيات بتوكيد بصوت أجش. قال كلَّ الأمور التي كان الرجال الآخرون قد قالوها ونسوها. كانت جملة «هذا هو الوقت المناسب لكي نضرب ضربتنا» هي جملتَه الأبرز، وكانت بارزة فقط لأنها أثارت ضجة خافتة من التصفيق.

تململ الجمهور بانعدام صبر. كان بنتفيتش الطيب قد تعدى الوقت المخصَّص له للحديث؛ وكان ثمة أناسٌ آخرون سيتحدثون؛ وكانوا ضجرين من ذلك. وكانت الساعة على وشك أن تدقَّ العاشرة قبل أن تنهض «امرأة جراتس».

كان ضجيجُ الثرثرة مرتفعًا إلى أقصاه في ركن القاعة، حيث كان بيتر الصغير يتحدث إلى جمهور خاص به، وكل الأعين مسلَّطة عليه والحواجب مرفوعة اندهاشًا.

«هذا مستحيل، هذا غير معقول، هذه حماقة بالغة!» ارتفع صوته الرفيع بهذه العبارات حتى كاد يصير صراخًا. «سأضحك من هذا الأمر، سنضحك كلُّنا، ولكن امرأة جراتس أخذَت الأمر على محمل الجِد، وهي خائفة!»

«خائفة!»

«هُراء!»

«أوه، يا بيتر، إنها حمقاء!»

قيلت أمور أخرى؛ لأن جميع من كانوا بالقرب أبدَوا رأيًا. كان بيتر مُغتمًّا، ولكن ليس بسبب النعوت. كان منكسرًا، ومُهانًا، وتغلبت عليه أنباؤه المروعة. كاد أن يبكي من الفكرة الرهيبة. كانت امرأة جراتس خائفة! امرأة جراتس التي، كان أمرًا لا يُمكن تصوره.

أدار عينَيه صوب المنصة، لكنها لم تكن هناك.

قالت له أصوات كثيرة بلهجة متوسلة: «أخبرنا عن الأمر، يا بيتر»؛ لكن الرجل الضئيل الحجم الذي كانت الدموع تلتمع على رموشه الفاتحة اللون تجاهلهم.

حتى ذلك الحين كان ما عرَفوه من كلامه غير المترابط هو هذا فحسب؛ أن امرأة جراتس كانت خائفة.

وكان ذلك سيئًا بما يكفي.

فقد كانت هذه المرأة — كانت فتاة في الواقع، فتاة تخطت لتوِّها مرحلة الطفولة وكان ينبغي أن تستكمل دراستها في مكانٍ ما في ألمانيا — هذه المرأة نفسها نهضت ذات يوم وصعقت العالم.

جرى لقاء في بلدة مجَرية صغيرة لمناقشة السبل والوسائل. وعندما كان الرجال قد انتهَوا من شجْبهم للنمسا، نهضَت وتكلمت. فتاة صغيرة ذات تنورة قصيرة وشعر كتاني مجدول بجديلتَين طويلتَين، ورِجلَين نحيفتَين، وصدر مسطح، وعظام بارزة، وبدون أرداف؛ ذلك ما لاحظه رجال جراتس وهم يُخفون ابتساماتهم بأيديهم ويتساءلون عن السبب في جلب والدها لها إلى الاجتماع.

لكن خُطبتها، لقد ظلت طيلة ساعتَين تتحدث ولم يتحرك أيٌّ من الرجال. فتاة صغيرة مسطحة الصدر زاخرة بالعبارات الرنانة، التي كانت في الأغلب قد جمعَتها من الحديث في مطبخ مطعم «جوزيف العجوز»، لكن بقدرة ما لديها جمعَت تلك الحقائق البديهية التافهة معًا، ومنحتها حيوية عجيبة.

كانت إحقاقًا للحق قديمة، بديهيات قديمة، لكن في وقت ما في تاريخ الثورة، كان عبقريٌّ مات منذ أمدٍ طويل قد صاغها، وكانت قد شكلت عقول الرجال ووجهت أعمالهم العظيمة والمروعة بعدما صُمِّمت على طراز حديث في أتون روحه.

هكذا جاءت امرأة جراتس، وتحدثوا عنها وتداولوا خطبها بجميع اللغات. وكَبُرَت. امتلأت قسمات وجه هذه الفتاة النحيفة، واستدار النهد المسطَّح واكتست بنية عظامها البارزة بخطوط وانحناءات أنعم، وقبل حتى أن يُدركوا الحقيقة، صارت جميلة.

وهكذا تعاظمت شهرتها حتى مات والدها وذهبت إلى روسيا. ثم حدثت سلسلة من الاعتداءات التي يُمكن سردها على نحوٍ تصنيفي ومختصر:

(١) أُردِي الجنرال مالوف قتيلًا على يد امرأة مجهولة في غرفته الخاصة في مكتب الشرطة بموسكو.

(٢) أُردِيَ الأمير هازالاركوف قتيلًا على يد امرأة مجهولة في شوارع بيتروجراد.

(٣) قُتِل الكولونيل كافيردافسكوف بقنبلة ألقتها امرأة ثم لاذت بالفرار.

وازدادت فجأة شهرة امرأة جراتس. كانت قد قُبِض عليها مرات كثيرة، وجُلِدَت مرتَين، لكنهم لم يستطيعوا أن يُثبتوا أي شيء عليها ولا استطاعوا أن يستخلصوا منها أي شيء؛ وكانت بالغة الجمال.

والآن، وعلى صوت التصفيق المدوي للمندوبين المنتظرين، صعدت على المنصة وأخذت مكان المتحدث الأخير بجوار الطاولة المغطاة بغطاء أحمر.

رفعت يدها فحلَّ صمتٌ مطلق وتام على القاعة، لدرجة أن كلماتها الأولى بدَت حادة وصاخبة؛ لأنها كانت قد كيفت صوتها مع الجلبة. ثم استعادت درجة صوتها وأخفضته إلى مستوى الحديث.

وقفت ببساطة ويداها مشتبكتان خلف ظهرها ولم تستخدمهما في أي تلويحات؛ إذ نقلت المشاعر التي بداخلها عبر صوتها الرائع. حقًّا، تكمن قوة الخطاب في إلقائه وليس في مضمونه؛ إذ لم تَحِد عن النص غيرِ المكتوب للأناركية إلا من حين لآخر: حق المقهور في الإطاحة بالطاغية، قدسية العنف، طهارة التضحية والاستشهاد في سبيل التنوير. ابتعدت عبارة واحدة عن نمط خطابها العادي. كانت تتحدث عن المنظِّرين الذين ينصحون بالإصلاح ويُدينون العنف، «هؤلاء المُسَحَاء الذين يُفوضون معذبيهم»، هكذا دعتهم بسخرية بديعة، وضجَّت القاعة بموافقتها على التصوير المجازي.

كانت ضراوة التهليل هي ما أربكها؛ وأدرك أطولُ الرجلَين، اللذَين كانا جالسَين يُشاهدانها، ذلك كثيرًا. فحين خفَت الصياح وسعت للمتابعة، تلعثمت وتلجلجت ثم صمتت. بعد ذلك، وفجأة وبحرارة مدهشة بدأت مجددًا. لكنها غيرت اتجاه خُطبتها، وتحدثت حينئذٍ في موضوع آخر؛ موضوع كان أقرب إليها في تلك اللحظة من أي موضوع آخر؛ إذ توردَت وجنتاها وظهر وميض محموم في عينَيها وهي تتحدث.

«... والآن، مع كل تنظيمنا المثالي، والعالم يكاد يكون في متناول أيدينا — يأتي أحدهم ويقول: «توقفوا!» — ونحن، الذين أرهبنا ملوكًا وسيطرنا على مجالس إمبراطوريات، نحن أنفسنا مهددون!»

ساد صمت تام بين الجمهور. كانوا صامتين قبلئذٍ، ولكن الآن كان الصمت مؤلمًا.

تململ الرجلان اللذان كانا يُشاهدانها قليلًا في جِلستهما، كما لو أن شيئًا في حديثها كان صادمًا. في الحقيقة، كان الإيحاء بالتبجُّح في جزمها بقوة منظمة المائة الحمر قد أصاب نغمة نشازًا.

تابعت الفتاة الحديث بسرعة.

«لقد سمعنا — وسمعتم — هؤلاء الرجال الذين كتبوا إلينا ونعرفهم.» وارتفعت نبرة صوتها وهي تقول: «يقولون إننا لا ينبغي أن نفعل ما نفعله. إنهم يُهددوننا — يُهددونني — بأننا يجب أن نُغير أساليبنا، وإلا فسيُعاقَبون مثلما — مثلما نحن — نُعاقَب؛ سيُقتَلون مثلما نحن نُقتَل.»

سرَت همهمةٌ بين الجمهور ونظر الرجال أحدهم إلى الآخر في ذهول. كان الرعب يرتسم جليًّا وبوضوح على وجهها الشاحب ويلتمع من عينَيها الرائعتَين.

«لكننا سنتحدى ...»

قاطعتها أصوات مرتفعة وصوت شجار في حجرة الانتظار الصغيرة، وجعلت كلمة تحذير، صاح بها أحدهم، الجمهور ينتصب واقفًا.

«الشرطة!»

امتدت مائة يدٍ خِلسة إلى جيوب سرية، لكن شخصًا ما قفز صاعدًا فوق أحد المقاعد، بالقرب من المدخل، ورفع يدًا آمرة.

«أيها السادة، لا يوجد ما يدعو إلى الفزع؛ أنا المفتش فالموث من سكوتلاند يارد، ولستُ في نزاع مع منظمة المائة الحمر.»

شق بيتر الصغير، الذي كان مذهولًا حينئذٍ، طريقه نحو المفتش.

سأله: «ماذا تريد؟ ماذا تريد؟»

وقف المفتش وظهره إلى الباب وأجاب.

«أريد رجلَين شُوهدا يدخلان هذه القاعة؛ عضوَي تنظيم خارج نطاق منظمة المائة الحمر. إنهما …»

«أها!» مالت المرأة، التي كانت لا تزال واقفة على المنصة، إلى الأمام بعينَين متقِدتَين.

صاحت بتلهُّف: «أعرف، أعرف! الرجال الذين يُهددوننا، الذين يُهددونني، «رجال العدالة الأربعة!»

الفصل الثاني

رجال العدالة الأربعة

كانت يد الرجل الطويل في جيبه عندما تحدث المفتش.

كان، عندما دخل القاعة، قد ألقى نظرة سريعة في أنحاء المكان واستوعب كلَّ تفصيلة. فرأى الشريط المطرَّز للخشب غير المطلي الذي يحمي كابلات الإضاءة الكهربية، وحسَّن فرصة إجراء مزيد من الاستطلاع بينما كان الأخ المملُّ يتحدث. كانت توجد لوحة مفاتيح بيضاءُ من البورسلين بها نصف دزينة من المفاتيح على الجهة اليسرى من المنصة. قدَّر المسافة وقذف اليد التي كانت ممسكة بالمسدس.

وأطلق النار.

سُمِع صوت زجاج يتهشَّم، وشُوهِد وميضٌ سريع للهبٍ أزرق من المصاهر المحطمة؛ وعم الظلام القاعة. حدث هذا قبل أن يستطيع المفتش أن يقفز من مقعده إلى الحشد الذي كان آخذًا في الصياح والصراخ، قبل أن يستطيع الشرطي أن يلمح الرجل الذي أطلق الرصاص.

في لحظة أصبح المكان في حالة هرج ومرج.

هدر صوت فالموث ليعلوَ فوق الضوضاء: «صمتًا! صمتًا! الزموا الصمت، أيها الحشد البائس. براون، كورتس، سلِّطا ضوءًا هنا. أيها المفتش، أين مصابيح رجالك؟!»

تموجت أشعَّة دزينة من مصابيح عين الثور فوق الحشد المتصارع.

وقال: «افتحوا مصابيحكم»، وللغوغاء المهتاجين قال: «صمتًا!» ثم تذكر شرطي شاب ذكي أنه قد رأى مشاعلَ غاز حائطية في الغرفة، وشقَّ طريقه بصعوبة عبر الغوغاء الذين كانوا يصيحون حتى وصل إلى الحائط ووجد مكانًا للغاز في مصباحه. حك عود ثقاب وأشعل الغاز، وانحسر الهلع فجأة كما بدأ فجأة.

جالَ فالموث، الذي كان مختنقًا من الغضب، بعينَيه حول القاعة. وقال باقتضاب: «احرسوا الباب. القاعة مطوَّقة ولا يُمكنهم الهرب بأي حال.» وسار بخطوات سريعة عبر الممر المركزي، وتبعه اثنان من رجاله، وبقفزة رشيقة، صعد فوق المنصة وواجه الجمهور. وقفت امرأة جراتس، بوجه شاحب، بلا حَراك، وإحدى يدَيها مستندةٌ على الطاولة الصغيرة، والأخرى على حَلْقِها. رفع فالموث يده ليأمر بالصمت وأطاع منتهكو القانون.

قال: «ليس لديَّ نزاع مع منظمة المائة الحمر. حسب القانون مسموح باعتناق الآراء وترويج المذاهب، مهما كانت مرفوضة؛ أنا هنا للقبض على رجلَين خرَقا قانون هذا البلد. رجلان هما جزء من تنظيمٍ يُعرَف باسم «رجال العدالة الأربعة».»

طَوال الوقت الذي كان يتحدث فيه كانت عيناه تُفتشان في الوجوه التي أمامه. كان يعرف أن نصف الحاضرين لا يستطيعون فهمه وأن الهمهمة التي تصاعدت ما إن انتهى كانت ترجمة لحديثه.

لم يستطع تبيُّن الوجوه التي كان ينشدها. على وجه التحديد، كان يأمُل أن يجعل إمعانُه النظرَ الرجلَين، اللذَين كان يجهل هويتهما، يفضحان نفسَيهما.

ثمة أحداثٌ تافهة، غير ذات أهمية في ذاتها، تُؤدي أحيانًا إلى مسائلَ هائلة. فقد أدى اصطدام حافلة منزلقة بسيارة خاصة في بيكاديلي قد أدى إلى اكتشاف أن ثلاثة من السادة الأجانب الصاخبين كانوا محبوسين في السيارة المقلوبة. وأدى هذا بدوره إلى اكتشاف آخر، وهو أن السائق قد اختفى في غمرة الفوضى الناتجة عن الاصطدام. في الظلام، بمقارنة الملاحظات، كان السجناء الثلاثة قد توصلوا إلى استنتاج؛ وهو أن اختطافهم كان نتيجة لخطاب غامض تلقاه كل واحد منهم، وكان يحمل توقيع «رجال العدالة الأربعة».

لذا في غمرة الفزع الناجم عن الحادث، كانوا من الرعونة بما فيه الكفاية ليلعنوا «رجال العدالة الأربعة» بالاسم، وخضعوا لمزيد من الاستجواب بشأن موضوع «رجال العدالة الأربعة»؛ لكونه موضوعًا مزعجًا يشغل الشرطة، وانتهى الأمر بأن مضى رئيس الشرطة فالموث بالسيارة شرقًا بسرعة كبيرة والتقى في شارع ميدلسكس بأفراد شرطة احتياطيين استُدعوا خصِّيصى.

كان لديه العائق نفسه الذي كان يُواجهه دومًا؛ وهو أن «رجال العدالة الأربعة» كانوا لا يُمثلون له إلا أسماءً؛ رموزًا لقوة سريعة قاسية ضربت ضربتها بثبات ودقة، ولا شيء أكثر من ذلك.

كان اثنان من القادة الثلاثة لمنظمة المائة الحمر قد نأَيا جانبًا بنفسَيهما واقتربا أكثرَ من المنصة.

قال فرانسوا، الفَرنسي، متحدثًا نيابةً عن رفاقه بلغة إنجليزية سليمة: «لا علم لنا، لا علم لنا بهُوية الرجال الذين تنشدهم، ولكن على أساس أنهم ليسوا إخوة من محفلنا، وإلى جانب ذلك»؛ حارت منه الكلمات نظرًا للموقف الغريب، «وإلى جانب ذلك، بما أنهم قد هددونا.» وكرر في ارتباك: «هددونا، فسوف نُقدم لك كل مساعدة.»

انتهز المفتش الفرصة.

وقال: «حسنًا!» ووضع خطة سريعة.

لا يُمكن أن يكون الرجلان قد هربا من القاعة. كان يوجد باب صغير بالقرب من المنصة، كان قد رآه؛ كما رآه الرجلان اللذان ينشدهما. بدا الهروب ممكنًا عبره؛ وكانا قد فكرا في ذلك أيضًا. لكن فالموث كان يعرف أن الباب الخارجي المؤدِّيَ من الدهليز الصغير كان يحرسه اثنان من رجال الشرطة. كانت تلك هي خلاصة الاكتشاف الذي توصل إليه أيضًا الرجلان اللذان كان ينشدهما. فبادر بالحديث إلى فرانسوا.

قال بسرعة: «أريد أن يُكْفَل كل شخص في القاعة. لا بد أن يُثبِت أحدٌ ما هُويةَ كل رجل، ويجب أن يُثبت أحدٌ ما هوية من سيُثبت هويةَ الآخرين نفسِه.»

اتُّخِذَت الترتيبات بسرعة البرق. ومن فوق المنصة شرح قادة منظمة المائة الحمر الخطة باللغات الفرنسية والألمانية واليديشية. بعد ذلك شكلت الشرطة حاجزًا، وتقدم الناس واحدًا تلو الآخر، وبخجل، أو بتشكك أو بوعي ذاتي، حسب طبائعهم المتعددة، مروا عبر حاجز الشرطة.

«ذاك هو سيمون تشيك من بودابست.»

«من يُثبت هويته؟»

صاحت عشرة أصوات: «أنا.»

«فلتمر.»

«هذا هو ميخائيل رانيكوف من أوديسا.»

«من يُثبت هويته؟»

قال رجل قوي البنية، يتحدث الألمانية: «أنا.»

«وأنت؟»

صدرت ضحكة مكتومة صغيرة؛ لأن ميخائيل هو أشهر رجل في التنظيم. انتظر البعض، بعد مرورهم بالصف، كي يُثبتوا هُوية بني عشيرتهم ومواطنيهم.

«يبدو الأمر أبسط بكثير مما كان بوسعي أن أتخيل.»

كان القائل هو الرجل الطويل ذو اللحية المهذبة، الذي تحدث بصوت أجشَّ لم يكن بلكنة ألمانية ولا يديشية. كان يُشاهد الفحص باهتمام مصحوب بالمتعة.

قال وعلى وجهه شبح ابتسامة: «فصل الحملان عن الماعز بعنف.» فأومأ رفيقه قليل الكلام مجيبًا. ثم سأله:

«هل تظن أن أيًّا من هؤلاء الأشخاص سيتعرف عليك باعتبارك من أطلق الرصاصات؟»

فهز الرجل الطويل رأسه نفيًا بحسم.

«كانت أعينهم مسلطة على الشرطة؛ وإلى جانب ذلك، أنا سريع للغاية في إطلاق النار. لم يرَني أحد إلا ...»

سأل الآخر، دون أن يُبدي أدنى اهتمام: «امرأة جراتس؟»

قال جورج مانفريد: «امرأة جراتس.»

شكلا جزءًا من صف يشق طريقه بصعوبة ويتحرك ببطء نحو حاجز الشرطة.

قال مانفريد: «أخشى أننا سنُجبَر على الهرب بطريقة واضحة تمامًا؛ فطريقة ركض الثور الهائج بسرعة ودون تخطيط هي طريقة أعترض عليها من حيث المبدأ، ولم أُضطَرَّ أبدًا إلى استخدامها.»

كانا يتحدثان طوال الوقت بلهجة تخللها أصوات حنجرية غليظة، ونظر أولئك الذين كانوا بالقرب منهما ببعض الحيرة؛ لأنها كانت لهجة مختلفة عن أي لهجة تُسمَع في النطاق الثوري.

اقتربا أكثر وأكثر من المفتش الصارم في نهاية حاجز الشرطة. كان أمامهما شاب يستدير من وقت لآخر كما لو كان يبحث عن صديق في الخلف. كان ذا وجه اجتذب أقصر الرجلَين، الذي كان دومًا دارسًا للوجوه. كان وجهًا شديد الشحوب، أبرزه الشعر القصير الداكن والحاجبان الكثان الأسوَدان. كان وجه شخص حالم، يتسم بالجمال من ناحية الصورة الإجمالية، وبالدقة من ناحية الملامح، وفي العينَين المضطربتَين القلقتَين تكمن لمحة من تعصب. بلغ الحاجز وتقدم صوبه عشَرةُ رجال من أجل الحصول على شرف كفالته. ثم مر وتقدم مانفريد بهدوء للأمام.

ذكر اسم قرية ترانسيلفانية مبهمة: «هاينريش روزنبرج من راز.»

سأل فالموث برتابة: «من يُثبت هوية هذا الرجل؟» حبس مانفريد أنفاسه وأخذ أهبة الاستعداد للانطلاق.

«أنا.»

كان القائل هو الشاب الرقيق الذي كان قد مر قبله؛ الحالم ذو الوجه الأشبه بوجه قس.

«فلتمُر.»

مشى مانفريد على مهل، هادئًا مبتسمًا، وعبر حاجز الشرطة مشيرًا برأسه بإشارة ودية إلى منقذه. ثم سمع التحديَ الذي جابهه رفيقه.

سمع صوت بويكارت الواضح الهادئ: «رولف وولفَند.»

«من يُثبت هوية هذا الرجل؟»

مجددًا انتظر بتوتر.

سمع من جديد صوت الشاب وهو يقول: «أنا.»

ثم انضم إليه بويكارت، وانتظرا قليلًا.

رأى مانفريد بطرف عينه الرجل الذي كان قد كفله يمشي متمهلًا نحوهما إلى أن أصبح إلى جانبهما، ثم قال:

«إذا كنتما ترغبان في أن تُقابلاني في كِنجز كروس سأكون هناك بعد ساعة.» ولاحظ مانفريد دون انفعال أن هذا الشاب تكلم أيضًا بالعربية.

مرا عبر الجمع الذي احتشد حول القاعة — إذ كانت أنباء مداهمة الشرطة قد انتشرت كالنار في الهشيم عبر إيست إيند — ووصلا إلى محطة ألدجيت قبل أن يتحدثا.

قال مانفريد: «هذه بداية غريبة لمبادرتنا.» لم يبدُ عليه السرور ولا الأسف. وأضاف بطريقة متفلسفة: «طالما كنت أعتقد دومًا أن العربية هي أسلم لغة في العالم للحديث عن الأسرار؛ إن المرء ليتعلم الحكمة بمرور الأعوام.»

فحص بويكارت أظفاره المطلية بعناية كما لو كانت المشكلة تكمن فيها. قال، مخاطبًا نفسه: «لا توجد سابقة.»

وأضاف جورج: «وقد يكون مصدر إحراج»، ثم قال: «دعنا ننتظر ونرى ما ستجلبه الساعة القادمة.»

جلبت الساعة القادمة الرجل الذي كان قد تصادق معهما بغرابة شديدة. وجلبت أيضًا قبله بقليل رجلًا رابعًا كان يعرج قليلًا، لكنه حيَّا الرجلَين بابتسامة حزينة. سأله مانفريد: «هل أُصِبت؟»

قال الآخر بلا اهتمام: «لا شيء يستحق الحديث بشأنه، والآن ما معنى رسالتك الهاتفية الغامضة؟»

عرض مانفريد بإيجاز أحداث الليلة، وأنصت الآخر باهتمام بالغ.

استهل الحديث بقوله: «إنه موقف يبعث على الفضول.» وعندئذٍ ألجمَته نظرة تحذير من بويكارت. كان الشخص موضوع حديثهم قد وصل.

جلس إلى الطاولة، وصرف النادلَ الواجف الذي كان ينتظر بجواره.

جلس الأربعة في صمت لبرهة وكان الوافد الجديد هو أول من تكلم.

قال ببساطة: «أُطلِق على نفسي اسم برنارد كورتلاندر، وأنتم التنظيم المعروف باسم «رجال العدالة الأربعة».»

لم يُجيبوا.

تابع بهدوء: «رأيتك تُطلق النار؛ لأنني كنت أراقبك منذ لحظة دخولك القاعة، وعندما انتهجت الشرطة طريقة إثبات الهوية، عقدت العزم على أن أخاطر بحياتي وأتحدث نيابةً عنكما.»

قاطعه بويكارت بهدوء قائلًا: «تعنى أنك عقدت العزم على أن تُخاطر، بقتلنا إياك؟»

قال الشاب، وهو يهز رأسه بالإيجاب: «بالضبط، فمن منظور خارجي بحت، من شأن منحًى كهذا أن يكون فعلَ جحودٍ شيطاني، لكنني لديَّ تصوُّر أقربُ إلى المبادئ، وأُدرك أن نتيجةً كهذه لتدخلي هي نتيجة منطقية تمامًا.» اختص مانفريد بالحديث وهو يستند بظهره إلى الوسائد المخملية الحمراء. «لقد أظهرتَ كثيرًا أن الحياة البشرية هي العامل الأقل أهمية في تخطيطك، وقدمت أدلة على وحدة هدفك، حتى إنني مقتنع تمامًا بأنه لو وقفَت حياتي — أو حياة أي واحد منكم — عائقًا أمام تحقيق أهدافكم، فإن تلك الحياة ستنتهي، هكذا!» وفرقع إصبعَيه. قال مانفريد: «وماذا بعد؟» تابع الشاب الغريب قائلًا: «أعرف بشأن مآثرك، ومن ذا الذي لا يعرف بشأنها؟!»

وأخرج من جيبه حافظة جلدية، وأخرج منها قُصاصة من صحيفة. لم يُظهر أيٌّ من الرجال الثلاثة أدنى اهتمام بالورقة التي فضَّها على القماشة البيضاء. فقد كانت أعينهم مسلَّطة على وجهه.

قال كورتلاندر، وهو يُسوي الثنيات من قصاصة من صحيفة «ميجافون»: «ها هي قائمة بأشخاص قُتِلوا، في سبيل العدالة، رجال تغاضى عنهم قانون الأرض، يأكلون عرق البسطاء وفاسقون، لصوص أموال عمومية، مفسدون للشباب؛ رجال اشترَوا «العدالة» مثلما نشتري أنا وأنتم الخبز.» وطوى الورقة من جديد. «لقد دعوت الرب أن ألقاكم يومًا ما.»

«وبعد؟» كان هذا صوت مانفريد مجددًا.

«أريد أن أكون معكم، أن أكون واحدًا منكم، أن أُشارككم في حملتكم و… و…» تردَّد، ثم أضاف بجِديَّة: «وإن دعت الحاجة، في الموت الذي ينتظركم.»

هز مانفريد رأسه ببطء، ثم نظر نحو الرجل ذي العرج.

سأله: «ما قولك يا جونزاليس؟»

كان ليون جونزاليس هذا قارئًا شهيرًا للوجوه، وكان الشاب يعرف ذلك، وأدار وجهه من أجل الاختبار والتقَت عيناه بعينَي الآخر اللتَين كانتا تُقَيِّمانه.

قال جونزاليس ببطء: «متحمس، وحالم، ومُفَكِّر، بالطبع، وثمة موثوقية وهو أمر جيد، وتوازُن وهو أمر أفضل، ولكن …»

تساءل كورتلاندر بثبات: «ولكن؟»

كان الحكم الذي نطق به أن قال: «ثَمة شغَف، وهو أمر سيئ.»

أجاب الآخر بهدوء: «إنها مسألة تدريب. لقد ألقى بي قَدَري مع أناس يُفكرون باضطراب ويتصرفون بجنون؛ إنه خطأ كل التنظيمات التي تسعى إلى تصويب الخطأ بارتكاب الجرائم دون تمييز، التي تعتمد في منطقها على الحواس، والتي حطَّت من قدر المشاعر حتى صارت انفعالًا، والتي تخلط بين الملوك والمُلك.»

سأله مانفريد: «هل تنتمي إلى منظمة المائة الحمر؟»

قال الآخر: «أجل؛ لأن منظمة المائة الحمر تحملني لمسافة قصيرة في الطريق الذي أرغب في أن أسلُكه.»

«في الاتجاه الصحيح؟»

أجاب الآخر: «من يعرف؟ لا توجد طرق مستقيمة، ولا يُمكنك أن تستنتج وجهتك من الاتجاه الذي يأخذه أولُ خط للمسار.»

قال مانفريد: «لست بحاجة إلى أن أُخبرك بحجم المخاطرة الكبيرة التي تحملها على عاتقك، ولا إلى أن أُجهد نفسي في بيان مدى المسئولية التي تطلب الاضْطِلاعَ بها. هل أنت ثري؟»

قال كورتلاندر: «أجل، ولديَّ ثروة كبيرة؛ أمتلك ضيعاتٍ شاسعةً في المجر.»

قال مانفريد: «أنا لا أسأل ذلك السؤال عبثًا، ومع ذلك ما كان الأمر سيُمثل فارقًا لو كنت فقيرًا. هل أنت على استعداد لأن تبيع ضيعاتك — أعتقد أنها تُدعى «بودا-جراتس» — يا صاحب السمو؟»

لأول مرة ابتسم الشاب.

قال: «لم يُساورني أي شك في أنك عرَفتني، أما عن ضيعاتي فسوف أبيعها دون تردد.»

«وتضع المال تحت تصرفي؟»

أجاب على الفور: «نعم.»

«دون تحفظ؟»

«دون تحفظ.»

قال مانفريد ببطء: «وإذا شعرنا بميل إلى توظيف هذا المال فيما قد يبدو أنه لمنفعتنا الشخصية، هل ستعترض؟»

قال الشاب بهدوء: «لا.»

سأل بويكارت، وهو يميل قليلًا إلى الأمام: «وإثبات ذلك؟»

«وعد من ...»

قال مانفريد: «كفى، لا نريد مالك؛ لكن المال هو الاختبار الأصعب.» فكَّر لبرهة قبل أن يتكلم ثانيةً.

قال باقتضاب: «ثمة أمر امرأة جراتس؛ وفي أسوأ الأحوال يجب أن تُقْتَل.»

قال كورتلاندر، ببعض الأسى: «إنه أمر مؤسف.» كان قد أجاب على الاختبار النهائي وكان يعرف ذلك تمام المعرفة. إذعان طوعي مفرط، حماسة زائدة للاتفاق مع الحكم الأعلى الذي يُصدره «الأربعة»، أي شيء كان من شأنه أن يشيَ بالافتقار إلى ذلك الاتزان الذهني، الذي تطلَّبه عهدهم، كان سيُدينه بلا رجعة.

قال مانفريد، وهو يُشير إلى نادل: «لنشرب نخب تفاخر.» فُتِحَت زجاجة النبيذ ومُلئت الكئوس، وهمس مانفريد بكلمات النخب.

«الأربعة الذين كانوا ثلاثة، إلى الرابع الذي مات والرابع الذي وُلِد.»

ذات يوم كان يوجد رابع سقط بعدما أصابه وابلٌ من الرَّصاصات في مقهى في بوردو، وهو مَن شربوا نخبه. في شارع ميدلسكس، في القاعة شبه الخاوية، وقف فالموث محاصرًا بجيش من المراسلين الصحفيين.

«هل كانوا «رجال العدالة الأربعة»، يا سيد فالموث؟»

«هل رأيتهم؟»

«هل لديك أي أدلة؟»

مع كل ثانية كانت تأتي دفعة جديدة من رجال الصحافة، ودخلت سيارة أجرة تلو الأخرى في الشارع القذر، وكان صف السيارات المصطفَّة خارج القاعة يوحي بتجمع أنيق. كانت «فاجعة الهاتف» لا تزال حاضرة في مخيلة العامة، ولم يحتج الأمر إلا إلى نطق الكلمة السحرية «رجال العدالة الأربعة» لتأجيج شرارة الاهتمام مجددًا. شكَّل ممثلو منظمة المائة الحمر حشدًا مُمَيَّزًا في الساحة الأمامية الصغيرة الخالية، وعبر هؤلاء انتشر الصحفيون باجتهاد.

انسلَّ سميث من صحيفة «ميجافون» ومساعده الشاب، ماينارد، عبر الحشد ووجدا سيارة الأجرة الخاصة بهما.

صاح سميث مخبرًا السائق بوجهةٍ ما، ثم غاص مجددًا في المقعد مُصدرًا زفرة تشي بالإرهاق.

تساءل: «هل سمعت أولئك الشبان يتحدثون عن حماية الشرطة؟» وأضاف بغموض: «كل الأناركيين المباركين من كل أنحاء العالم؛ ويتكلمون وكأنه اجتماع أمهات! عندما تسمعهم تحسبهم من أفراد المجتمع الأكثر احترامًا الذين لم يشهد العالم لهم مثيلًا. يا لروعة حضارتنا!»

قال ماينارد: «سألني رجل بلغة فرنسية ركيكة جدًّا إن كان مسلك «رجال العدالة الأربعة» يستدعي المقاضاة!»

في تلك اللحظة، كان أحد قادة المائة الحمر يُوجِّه سؤالًا آخر إلى فالموث، فأجابه فالموث، الذي كان منزعجًا بعض الشيء، بكل ما استطاع استحضاره من تهذيب.

قال ببعض الحدَّة: «يُمكنكم أن تعقدوا اجتماعاتكم. ما دمتم لم تتلفظوا بأي شيء يُراد به إحداث خرق للسِّلم، يُمكنكم أن تتكلموا عن التحريض على الفتنة واللاسلطوية حتى يُصيبكم الإنهاك. سيُخبركم أصدقاؤكم الإنجليز عن المدى الذي يُمكنكم أن تمضوا إليه — ويُمكنني أن أقول لكم إن بوُسعكم أن تمضوا بعيدًا — يُمكنكم أن تُنادوا باغتيال الملوك، ما دمتم لم تُحددوا أي ملك؛ ويُمكنكم أن تتآمروا على الحكومات وتُنددوا بالجيوش والدُّوقات الكبار؛ في الواقع، يُمكنكم التصرف كما يحلو لكم؛ لأن ذلك هو القانون.»

سأله من يستجوبه، مكررًا الكلمات بصعوبة: «ما المقصود بخرق السلم؟»

أوضح له مفتشٌ آخرُ المقصود بذلك.

رافق فرانسوا ورودولف ستارك امرأةَ جراتس إلى مسكنها في بلومزبري تلك الليلة، وتناقشا بشأن إجابة المفتش.

كان ستارك هذا رجلًا ضخمًا، ذا بِنْية قوية، ووجه ممتلئ وبعض الانتفاخ تحت عينَيه. كان يشتهر بأنه ميسور الحال، ويُجيد التعامل مع النساء.

قال: «إذن يبدو أن بوسعنا أن نقول «فليُقتَل الملوك»، ولكن ليس «فليُقْتَل الملك»؛ كذلك يُمكننا أن ندعوَ إلى سقوط الحكومات، ولكن إذا قلنا «لندخل إلى هذا المقهى» — ماذا تدعونه؟ — «المكان العام، ولنكن وقحين مع المالك»، فإننا بذلك نخرق السلم، أليس كذلك؟»

قال فرانسوا: «هو كذلك. تلك هي الطريقة الإنجليزية.»

قال الآخر: «إنها طريقة مجنونة.»

وصلوا إلى باب مسكن الفتاة. كانت هادئة جدًّا أثناء السير، وتُجيب عن الأسئلة التي كانت تُوجَّه إليها بكلمات أحادية المقطع. فقد كان في أحداث الليلة الكثيرُ مما يدعوها إلى التفكير.

ودَّعها فرانسوا باقتضاب متمنيًا لها ليلة طيبة وسار مبتعدًا قليلًا. كان يُعتبَر امتيازًا لستارك أن يقف أقربَ ما يكون إلى الفتاة. عندئذٍ أمسك بيدَيها النحيفتَين ونظر إليها. كان أحدهم قد قال إن الشرق يبدأ عند بوخارست، لكن ثمة لمسة من الشرق في كل مجرًى، وثمَّة فظاظة في مجمل مسلكهم مع النساء تُصيب مشاعر الغربيِّين الرقيقةَ بالصدمة.

قال بصوت خفيض: «ليلة طيبة يا ماريا الصغيرة. يومًا ما ستكونين ألطف، ولن تتركيني عند الباب.» نظرت إليه بثبات، وأجابت، دون أن ترتجف: «ذلك لن يحدث أبدًا.»

الفصل الثالث

جيسين، الشهير باسم لونج

مجددًا امتلأت الصفحة الأولى من كل صحيفة يومية لندنية كبيرة بقصة «رجال العدالة الأربعة».

قال محرر صحيفة «ميجافون» بحزن: «ما أريده هو نوع من الدعاية الرسمية من «الأربعة»؛ نوع من التصريح الملهم الذي يُمكننا أن نُفرد له ستة أعمدة.»

نشق تشارلز جاريت، المراسل «النجم» لصحيفة «ميجافون»، الذي كانت قبعته على مؤخر رأسه، وعينه تبدو غير منتبهة مثبتة على الثُّريا.

نظر المحرر إليه متأملًا.

«قد يستطيع رجل ذكي أن يتصل بهم.»

قال تشارلز، ولكن دون حماس: «نعم.»

قال المحرر متأملًا: «لو لم أكن أعرفك لقلت إنك خائف.»

قال تشارلز دون خجل: «أنا كذلك بالفعل.»

قال المحرر بحزن: «لا أريد أن أُوكل هذه المهمة إلى مراسل أصغرَ سنًّا. سيبدو هذا سيئًا في حقك؛ لكن يُؤسفني القول إنه يجب أن أفعل.»

قال تشارلز بحيوية: «افعل، افعل، وسأُسهِم بعشَرة شلنات لشراء إكليل الزهور الذي ستضَعونه على قبره.»

غادر المكتب بعد ذلك ببضع دقائق وشبحُ ابتسامة يعلو زوايا فمِه، وبتصميم راسخ في أعمق أعماق قلبه وأكثر تجاويفه سريةً. كانت تلك هي شيمةَ تشارلز الذي، بعد أن أثبت بحزم لا يلين حقَّه في رفض عملٍ ذي طبيعة خطرة، سيضطَلِع بمحض إرادته بالمهمة التي كان قد عارضها رسميًّا. من المحتمل أن رئيسه كان يعرفه مثلما يعرف

نفسه؛ إذ عندما خرج تشارلز مغاضِبًا من المكتب، وهو يُصدر من أنفه زفرةَ تحدٍّ أخيرة، انعكست الابتسامة، التي ظهرت على شفتَيه، على وجه المحرر.

بينما كان تشارلز يسير عبر ممرات مقر صحيفة «ميجافون» التي يتردد فيها الصدى، كان يُصفر تلك الأغنية الشهيرة والساخرة، التي تقول فيها كلمات الجوقة:

بتصريح كريم من صحيفة «ميجافون»،
بتصريح كريم من صحيفة «ميجافون». يأتي الصيف عندما يذهب الربيع،
والعالم يدور ويدور.
بتصريح من صحيفة «ذا دايلي ميجافون».

بعد قليل، وجد نفسه في شارع فلييت، وبينما كان واقفًا عند حافَة الرصيف، أجاب نظرة متوقعة من سائق سيارة الأجرة بإشارة من رأسه.

سأله السائق: «إلى أين، يا سيدي؟»

«٣٧ شارع بريسلي، والورث؛ دُر حول «بلو بوب» واسلك المنعطف الثاني يسارًا.»

بينما كان يعبر جسر ووترلو خطرَ له أن سيارة الأجرة قد تلفتُ الانتباه؛ لذا في منتصف الطريق عبر طريق ووترلو أعطى أمرًا آخر، وبعد أن صرف السيارة، مشى بقية الطريق على قدمَيه.

قرع تشارلز باب البناية رقم ٣٧ في شارع بريسلي، وبعد قليل من الانتظار تردد صوتُ خطوة ثابتة في الممر، وانفرج الباب قليلًا. كان الممر مظلمًا، لكن كان بوُسعه أن يرى على نحو غير واضح الهيئةَ المكتنزة لرجل وقف ينتظر بصمت.

سأل: «هل أنت السيد لونج؟»

قال الرجل باقتضاب: «أجل.»

ضحك تشارلز، وبدا أن الرجل تبين الصوت وفتح الباب فتحةً أوسعَ قليلًا.

سأل في دهشة: «ألست السيد جاريت؟»

قال تشارلز: «هذا أنا.» ودخل إلى المنزل.

توقَّف مضيفه ليُحْكِم غلق الباب، وسمع تشارلز صوتَ انطباق القُفل المزيت جيدًا وصوت حكَّة سلسلة. ثم باعتذار دفعه الرجل مارًّا به، وبعد أن فتح الباب، قاده إلى غرفة جيدة الإضاءة، وأشار إلى تشارلز لكي يجلس على مقعد عميق، وجلس هو بالقرب من مائدة صغيرة، وقلب صفحة كتاب من الواضح أنه كان يقرؤه، ونظر بتساؤل إلى زائره.

قال تشارلز: «جئت لكي أستشيرك.»

ربما كان من شأن رجل أدنى مكانةً من السيد لونج أن يكون وقحًا إلى حد كبير، لكن هذا الشاب — الذي كان في الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه بدا أكبر — لم ينحدر إلى مستوًى كهذا.

قال مجيبًا: «أردتُ أن أستشيرك.»

كانت لهجته لهجةَ رجل يُخاطب ندًّا له، لكن كان ثمة شيءٌ في سلوكه يوحي بالإجلال.

تابع قائلًا: «لقد تكلمت معي بشأن ميلتون، لكنني أرى أنني لا أستطيع أن أقرأ له. أظن أن ذلك بسبب أنه ليس حسيًّا بما يكفي.» ثم توقف قليلًا عن الكلام. «الشعر الوحيد الذي أستطيع قراءته هو شعر الكتاب المقدس؛ وذلك لأن الحسية والروحانية ممتزجتان فيه ببراعة.»

ربما يكون قد رأى شبح الاهتمام على وجه الصحفي، لكنه توقف فجأة.

قال: «يُمكنني أن أتحدث عن الكتب في وقت آخر.» لم يُبدِ تشارلز النفي التقليدي، وإنما قَبِل تأويل الآخر للحاجة الملحة إلى الشأن الذي جاء من أجله.

قال تشارلز: «أنت تعرف الجميع، جميع الأسماك الغريبة في السلة، ونسبةٌ منها تعرفك، في الوقت المناسب.» أومأ الآخرُ برأسه بجدية.

تابع الصحفي: «عندما تفشل مصادر المعلومات الأخرى، لم أتردَّد يومًا في أن آتيَ إليك، يا جيسين.»

ربما يُلاحَظ أن الرجل الذي كان يُدعَى «السيد لونج» على عتبة المنزل أصبح «السيد جيسين» في حميميَّة الغرفة الداخلية.

قال بجدية: «أنا مدين لك بأكثر مما يُمكن أن تكون مدينًا به لي في أي وقت مضى؛ فقد وضعتني على المسار.» ولوَّح بيده في الغرفة كما لو كان صفاء الغرفة هو رمز ذلك المسار الذي تحدث عنه. «أتذكُر ذلك الصباح؟ إن كنت نسيت، فأنا لم أنسَ — عندما قلتُ لك إنه لكي تنسى — يجب أن أشرب؟ وأنت قلت ...»

قال المراسل بهدوء: «لم أنسَ، يا جيسين؛ وحقيقةُ أنك أنجزتَ كل ما أنجزتَه دليلٌ على أنه يوجد أشياء جيدة بداخلك.»

تقبَّل الآخر المديح دون تعليق.

تابع تشارلز: «والآن، أُريد أن أُخبرك بما كنتُ قد شرَعت في إخبارك به؛ أنا أتتبَّع قصة كبيرة. إنها قصة «رجال العدالة الأربعة»؛ هل تعرف كل شيء عنها؟ أرى أنك تعرف؛

حسنًا، لا بد أن أتصل بهم بطريقة ما. لا أتخيل للحظةٍ واحدة أنك تستطيع أن تُساعدني، ولا أتوقع أن يكون لهؤلاء الشباب أيُّ صلات وسط الناس الذين تعرفهم.»

قال جيسين: «ليس لديهم؛ لم أعتقد أن الأمر يستحق التقصيَ. أتريد أن تذهب إلى الرابطة؟»

زَمَّ تشارلز شفَتَيه في تفكير.

قال ببطء: «نعم، تلك فكرة؛ أجل، متى؟»

«الليلة، إن شئت.»

قال تشارلز: «الليلة إذن.»

نهض مُضيفه وغادر الغرفة.

عاود الظهور بعد قليل، وهو يرتدي مِعطفًا طويلًا داكنًا وحول عنقه وِشاح حريري أسود أكَّد على شحوب وجهه القوي المربَّع.

قال: «انتظر لحظة.» وفتح درجًا، أخذ منه مسدسًا دوَّارًا.

أدار خِزانة المسدس بحرص. وابتسم تشارلز.

سأله: «هل سيكون ذلك ضروريًّا؟»

هز جيسين رأسه نفيًا.

قال ببعض الحرج: «لا، ولكن، لقد تخليت عن كل حماقاتي وأهوائي، ولكن هذه ما زالت باقية.»

«خوف الاكتشاف؟»

أومأ جيسين برأسه إيجابًا.

«إنها الحماقة الوحيدة الباقية، هذا الخوف. إنه بمثابة الذبابة الملتصقة بالدهان.»

قاد الطريقَ عبر الممر الضيق، بعد أن أطفأ المصباح أولًا.

وقَفا معًا في الشارع المظلم، بينما كان جيسين يتأكد من أنه أحكم إغلاق المنزل.

قال: «الآن»، وبعد بضع دقائق وجَدا نفسَيهما وسط الفوضى الصاخبة لليلة انعقاد أحد الأسواق في طريق والورث.

تابعا السير في صمت، ثم انعطفا إلى شارع إيست ستريت، وشقا طريقهما بين المتسوقين المتسكِّعين، وتفاديا الأكشاك المعلقة عليها مصابيحُ نفطية متوهجة، وانعطفا انعطافًا حادًّا في شارع ضيق.

كان يبدو أن الرجلَين واثقان من معرفتهما بالمنطقة التي هما فيها؛ إذ كانا يسيران بسرعة وبدون تردد، وبعد أن اجتازا ساحة صغيرة تصل طريقًا رئيسيًّا كريهَ الرائحة بآخر، توقفا في الوقت نفسه معًا أمام بابٍ ما، بدا أنه مصنعٌ مهجور.

مد شابٌّ ذو وجهٍ بارزِ العظام، كان يجلس بجوار الباب ويتصرف كبواب، يده إلى الأمام وهما يدخلان، لكنه إذ تبينهما تراجع دون أن ينبس بكلمة.

صعدا درجات سلَّم سيِّئ الإضاءة قابلاه، وأرشد جيسين صديقه إلى قاعة ضخمة بعد أن فتح بابًا في أعلى درجات السُّلم.

كان المشهد الذي وقعت عليه عينا الصحفي مثيرًا للفضول. ومع درايته الجيدة بـ «الرابطة»، وبتكوينها الاستثنائي، لم يكن قد وطئ بقدمه قبلئذٍ داخلَ بوابتها. ونظرًا إلى استناده في انطباعه إلى معرفته بأندية العمال والمؤسسات الخيرية التي تعمل على إعادة إنعاش الشباب المتدهور، أغفل طاولة البلياردو ذاتَ الوجود الحتمي، وأغفل أيضًا الطاولة المتناثر عليها أعمالٌ أدبية مضى على صدورها شهر، ولكن الأهم من ذلك كله أنه أغفل رائحة القهوة المجانية.

كانت الأرض مغطَّاة بنشارة الخشب، وبالقرب من نار المدفأة التي كانت تُطقطِق وتتوهج في أحد أطراف الغرفة، كانت توجد دائرة غير مكتملة من المقاعد جلس عليها رجالٌ من أعمار متباينة. شبَّان يبدون مسنِّين ومسنُّون يبدون شبابًا، ورجال بملابسَ رثة، ورجال بهندام حسن، ورجال يرتدون ملابسَ لافتة للنظر ويتألقون بمجوهرات رديئة. وكانوا يتناولون الشراب.

تشارك شابان في إحدى نهايتَي قوس المقاعد قدحًا من ربع جالون من البيوتر؛ وأمسك الرجل ذو المظهر اللافت الذي طغى صوته على الحديث بكوب من الويسكي بيد يرتدي فيها خواتم، وكان مع الرجل، ذي اللحية البيضاء والوجه ذي النُّدوب الذي جلس محنيَّ الرأس منصتًا، كأسٌ من شراب كحولي ممتلئ بسائل عديم اللون حتى نصفه.

لم ينهض أحدٌ من مجلسه ليُحيِّيَ القادمين الجدد.

أشار الرجل ذو المظهر اللافت برأسه بلطف، وأرجع أحد الجالسين في الدائرة مقعده إلى الوراء ليُفسح مكانًا لجيسين.

قال الرجل ذو المظهر اللافت: «كنت فقط أقول …» ثم نظر إلى تشارلز.

أشار جيسين بما يُفيد بأنه «لا بأس.»

فتابع الرجل ذو المظهر اللافت: «كنت فقط أقول لهؤلاء الفتيان إنه بالمقارنة بشيء بآخر، توجد أماكنُ أسوأ من «السجن».»

لم يردَّ جيسين على هذا القول الدوجماتي، وتابع الرجل الذي يضع الخواتم حديثَه.

«وما نفع رجل يُحاول أن يكون مستقيمًا؟ ستقبض عليك الشرطة مع ذلك: عدم الإبلاغ بتغيير العنوان، التسكع عمدًا؛ لا يُهم ما تفعله إن كنت قد وقعت في المشاكل مرة؛ فمن المؤكد أنك ستقع فيها مجددًا.»

سرى صوتُ همهمة بالموافقة.

قال المتحدث بفخر: «انظروا لي. لم أُحاول مطلقًا أن أُصبح مستقيمًا، ودخلت السجن مرتَين واستلزم الأمر ستة من رجال الشرطة للإمساك بي آخرَ مرة، وتعين عليهم استخدامُ «العصا».»

نظر جيسين إليه بفضول طفيف.

«ما الذي يُثبته ذلك، عدا أن رجال الشرطة كانوا لينين جدًّا؟»

انتصب الرجل واقفًا وقال: «مطلقًا!»

تحت غطاء التأنق المبهرج، تبين تشارلز القوة الحيوانية للمجرم.

تابع الرجل قائلًا: «عجبًا، عندما أكون لائقًا، كحالي الآن، لا يستطيع شرطيان، ولا حتى أربعة، الإمساك بي.»

انطلقَت يد جيسين وأمسكت به من ساعِده.

قال مقترحًا: «حرِّر نفسك»، واستدار الرجل كالبرق، لكن جيسين أمسك بذراعه الأخرى بقبضة من حديد.

قال مجددًا: «حرِّر نفسك»؛ لكن الرجل كان بلا حول ولا قوة، وأدرك ذلك، وبعد توقف قصير أخلى جيسين سبيله.

تساءل: «كيف كان ذلك؟»

لم يخْجَل المقبوضُ عليه من ابتسامات تندُّر الرجال.

قال مفسرًا ببساطة: «السيد مختلف؛ فلديه مهارة خاصة لا تملكها الشرطة.»

سحب جيسين كرسيًّا، وأيًّا ما كان ذا دلالة ومغزًى في هذا التصرف، فقد كان كافيًا ليُسبب صمتًا فوريًّا.

جال بناظره في الوجوه المنتبهة التي كانت متجهة نحوه. رأى تشارلز، الذي كان مُشاهِدًا مهتمًّا، الوجوه المتلهفة التي مالت في اتجاه صديقه، وتعجب كثيرًا من المناقب المنتجة للبذرة التي زرعها.

بدأ جيسين يتكلم ببطء، ورأى تشارلز أن ما قاله اكتسى بطابَع خُطبة. كان واضحًا من الانتباه الذي كانت تُتلقَّى به خطب جيسين هذه أنها لم تكن أمرًا غير معتاد، وأنها كانت موضعَ ترحيب.

قال جيسين، مشيرًا إلى الرجل ذي الخواتم: «ما كان فالك يقوله لكم صحيح، إلى حد بعيد. ثَمة أماكنُ أسوأ من «السجن»، وصحيح أن الشرطة لا تُعطي رجلًا مسنًّا فرصة، ولكن ذلك لأن الرجل لن يُغير مهنته. ولن يُغير الرجل مهنته؛ لأنه لا يعرف أي صنعة أخرى يُمكنه أن يحصل منها على المال بهذه السرعة الكبيرة.» هز رأسه تجاه شابٍّ ذي مظهر واهن: «والي، والي هذا حُكِم عليه بالسجن من أجل ماذا؟ من أجل أغراض جلبَت ثلاثين جنيهًا من تاجر بضائع مسروقة. اثنا عشر شهرًا من الأشغال الشاقة مقابل ثلاثين جنيهًا! إن قيمتها تصل إلى ١٠ شلنات و٦ بنسات للأسبوع. وكلفه محاميه والناطق بلسانه خمسة جنيهات من ذلك المبلغ.» ثم أشار إلى الرجل ذي الرأس المكتسي بالشيب ويحمل شراب الجِن، قائلًا: «جارث العجوز سُجِن خمس سنوات مقابل ما هو أقلُّ من ذلك، وخرج منذ فترة وجيزة. وقيمة جزائه تصل إلى نحو شلن في الأسبوع.»

رصد الحركة الضجرة التي أتى بها فالك.

تابع بلين بسلاسة قائلًا: «أعرف أن فالك سيقول إن ما أقوله ليس من ضمن الصفقة؛ فعندما أعددتُ لإقامة «الرابطة»، تعهدت أنه لن يكون ثمة حديثٌ شخصي ولا غناء من قبيل «هلموا، يا جميع المؤمنين». الجميع يعرف أن الوجود في عالم الإجرام هو عمل أحمق لا يأتي بخير، ولا أريد أن أزيد الطين بلَّة. ما كنت وما زلت أقوله وأفعله دومًا هو في اتجاه جعلكم، أيها الرفاق، تجنون أموالًا أكثر من صنعتكم.

ثمة رجلٌ يكتب عن الجيش كان يُحاول أن يجعل الجنود يتعلمون مهنًا، وبدأ بدايةً صحيحة بجعل المجنَّدين غيرَ راضين عن مهنتهم؛ وذلك ما أُحاول فعله. ماذا فعلتُ مع إيزاك الشاب؟ لم أُوجِّه إليه مواعظ، ولم أُصلِّ من أجله. لقد كان آيك واحدًا من أفضل المحتالين في لندن. كان يصنع عملاتٍ من فئة نصف كراون من أواني البيوتر كان يستعصي كشفُها. كانت ذات رنةٍ حقيقية ولم تكن تنثني. حُكِم على آيك بثلاثة أعوام، وعندما خرج وجدتُ له عملًا. هل حاولت أن أجعله حطابًا، أو عاملًا يقود حيوانات الحراثة في منظمة جيش الخلاص؟ كلا. كان سيعود إلى الاحتيال بعد أسبوع لو كنتُ فعلت ذلك. جعلت شركة من صانعي الميداليات في بريمنجهام تضمه، وعندما وجد آيك نفسه وسط قوالب

الجِصِّ والحمامات الكهربائية، واكتشف أنه يستطيع أن يعمل في مهنته بشرف، تمسَّك بها.»

زمجر فالك بسخط: «لسنا محتالين.»

تابع جيسين: «الأمر نفسُه في كل الفروع. كل ما في الأمر يا رفاق أنكم لا تعرفون ذلك. مثلًا، تلفيق الحكايات.»

لن يكون من الإنصاف متابعة جيسين عبر الخطاب المفصل الذي أثبت به على نحوٍ أرضى مستمِعيه أن النصَّاب هو بائع متجول بالسليقة. كان كثير من حججه باطلًا لا محالة؛ فقد تجاهل المبادئ الأولى، وتعامى عما بدا لمستمع ذكي مثل تشارلز عقباتٍ لا يُمكن تجاوزها في مخطط إعادة التأهيل. لكنَّ مستمعيه اقتنعوا. وتعزز الاقتناع لدى الرجال المتحلقين حول نار المدفأة مع متابعته. دخل رجال إلى الغرفة فُرادى، ومَثنى، وثُلاثَ، وانضموا إلى المجموعة عند المدفأة. كانت الأنباء قد ذاعت بأن جيسين يتحدث — كانوا يدعونه «السيد لونج»، بالمناسبة — ووصل بعض القادمين الجدد يلهثون، كما لو كانوا يُهرولون من أجل ألا يفوتهم أي جزء من الخطبة.

كان من المؤكد أن ذلك الداعيَ إلى السخط والتبرم قد نجح في أن يُدخل في عقول مستمعيه ذلك الاضطرابَ وعدم الرضا اللذَين اعتبرهما أساس قاعدة أخلاقية جديدة. فقد بدا على كل وجه من الوجوه طابَعُ الشك المتعمق.

بقدر ما كان الأمر كلُّه مثيرًا للاهتمام، لم يغِب عن بال تشارلز جاريت الغرضُ من زيارته، وتململ قليلًا بينما كان المتكلم يُتابع حديثه.

فور دخوله الغرفةَ كان قد استوعب العلاقة الدقيقة التي كان جيسين يُمثِّلها لتلاميذه. لم يكن جيسين الذي كان يعرفه يستطيع أن يطرح سؤالًا مباشرًا عن معرفتهم بمن يُدعَون «رجال العدالة الأربعة» دون إثارة شعور بالشك كان من شأنه أن يُقوِّض نجاح المهمة، ومن المؤكد أنه كان سيعرض وجود «الرابطة» نفسه للخطر.

عندما فرغ جيسين من الكلام، وبعدما أجاب عن عشَرة أسئلة انطلقت في الوقت نفسِه من عشَرة أشخاص، وبعدما أجاب عن الأسئلة التي أثارتها هذه الاستفسارات، عندئذٍ جاء استهلالٌ من شخص غير متوقَّع.

إذ، مع طابع الجدِّية الذي اتخذه اللقاء، سلكَت الأسئلةُ المنحى التهكميَّ الحتمي.

سأله فالك باستخفاف وبقعقعة ضحك بسيطة: «ما المهنة التي ستُعطيها لمن يدعون «رجال العدالة الأربعة»؟»

التقَت عينا الصحفي بعينَي المصلح لثانية، وعبْر عقلي كِلا الرجلَين سطعَت الإجابة. اختلج فمُ جيسين قليلًا، وصارت يداه القلقتَين أكثرَ اضطرابًا وهو يُجيب ببطء: «إذا كان بوُسع أيِّ أحد أن يُخبرني بالضبط من هم «رجال العدالة الأربعة»؛ ما مجال عملهم بالتحديد، يُمكنني أن أُجيب عن ذلك.»

كان الرجل المسنُّ الذي يحتسي شرابَ الجِن في صمت هو من تكلم لأول مرة.

سأله: «هل تذكر بيلي ماركس؟»

كان صوته أجشَّ، كحال رجلٍ يستخدم صوته على فترات نادرة.

تابع قائلًا: «لقد مات بيلي ماركس، مات وشبع موتًا. كان يعرف «رجال العدالة الأربعة»؛ سرق ساعة أحدهم ومفكرته وكاد أن يسرقهم.»

كان ثَمة رجل يجلس بجوار فالك وكان يتطلع إلى تشارلز بانتباه مسترق.

عندئذٍ استدار إلى جيسين وتكلم في صلب الموضوع. قال: «لا تدَع أي أفكار تُراودك في رأسك بأن أمثالنا لن يكون لهم أيُّ صلة برجال العدالة الأربعة.» وتابع قائلًا: «عجبًا، يا سيد لونج، إن احتمال أن يتصل رجال العدالة الأربعة بك يُضاهي احتمال أن يتصلوا بنا؛ ومع كونك مسئولًا حكوميًّا، فالأمر محتمل جدًّا بالفعل.»

مجددًا تبادل جيسين وتشارلز نظرة خاطفة، وفي عينَي الصحفي لاح بريقٌ غريب.

افترض أنهم اتصلوا بجيسين! لم يكن أمرًا غيرَ محتمل. ذات مرة في السابق، أثناء السعي وراء ثأرهم في دولة أمريكية جنوبية، كانوا قد اتصلوا برجل مثل جيسين. كانت خاطرة، وخاطرة جديرة بالمتابعة.

وقف تشارلز غارقًا في التفكير يُقلِّب الاحتمالات في ذهنه بينما كان جيسين لا يزال يتكلم، وساعده أحد الرجال على ارتداء معطفه الطويل.

ثم بينما كانا يُغادران القاعة معًا، مرورًا بحارس المكان أسفل الدرج، استدار الصحفيُّ إلى رفيقه.

«هل من الممكن أن يتصلوا بك؟»

هز جيسين رأسه نفيًا.

قال: «ذلك غير محتمل؛ فهم لا يحتاجون إلى مساعدةٍ خارجية.»

سارا بقيةَ الطريق في صمت.

تصافح تشارلز مع جيسين عند باب منزل الأخير.

وقال له: «إذا تصادف واتصلوا …»

ضحك جيسين.

قال ببعض السخرية: «سأُحيطك علمًا.»

ثم دخل منزله، وسمع تشارلز مجددًا صوتَ انطباق القُفل بينما كان الرجل الغريب يُغلق الباب وراءه.

في غضون أربعٍ وعشرين ساعةً سجَّلت الصحف الاختفاء الغامض لرجل يُدعى السيد جيه لونج، من شارع بريسلي. كان من شأن اختفاءٍ كهذا أن يكون بلا أهمية، لولا رسالةٌ قصيرة عُثِر عليها على طاولته. كُتِب فيها:

لقد أخذنا السيد لونج؛ لكونه ضروريًّا لغرضنا.

رجال العدالة الأربعة

كان ارتباط المسألة برجال العدالة الأربعة كافيًا لإعطائه قيمةً إخبارية غير عادية. وغنيٌّ عن القول إن الصحافة كانت مرتبكة. وسبب ذلك أن السيد لونج كان رجلًا غيرَ مهم إلى حد ما ولديه بعضٌ من التعليم الذاتي وهوسٌ بإصلاح الطبقات الإجرامية. ولكن وزارة الداخلية، التي كانت تعرف السيد لونج باسم «السيد جيسين»، كانت منزعجة للغاية، واستُخدِمت عبقرية سكوتلاند يارد للكشف عن مكان وجوده.

الفصل الرابع

الفاصولياء الحمراء

بعث المجلس الداخلي باستدعاء عاجلٍ إلى الرجال القائمين على شئون منظَّمة المائة الحمر.

جاء ستارك، وفرانسوا، والفرنسي، وهولوم، والإيطالي، وبول ميرتيسكي، وجورج جريب، والأمريكي، ولودر بارثولوميو، وجاء أيضًا القائدُ السابق للفرسان غير النظاميِّين. كان بارثولوميو هو الأحسنَ هندامًا بين الرجال الذين تجمَّعوا حول الطاولة الخضراء في شارع جريك؛ لأنه كان في السابق يعقد اللجنة الملكية، وهي في حد ذاتها بمثابة تعليم لكيفية ارتداء الملابس. تذكر الرجال الذين التقَوا به بالكاد اسمه وعبسوا. كان لديهم فكرةٌ غير واضحة أن كان ثمة «أمر ضده»، لكنهم لم يكونوا متأكِّدين تمامًا من ماهيته. لا بد أنه كان له علاقة بما يُسمَّى الحرب الجنوب أفريقية وباستسلام؛ ليس استسلامًا عاديًّا، وإنما تنسيق مع العدو على أساس نقدي، وتحويل للمَئونة. أقيمت له محاكمة عسكرية، وسُرِّح من الخدمة، وبعد ذلك قَدِم بارثولوميو إلى إنجلترا وهاجم بإصرار، أولًا وزارة الحربية ثم الصحافة، بمجموعة من الشكاوى المكتوبة على الآلة الكاتبة. بعد ذلك دخل المجال المسرحي وظهر في مشاهد قصيرة في قاعة الموسيقى في دور «كابتن لودر بارثولوميو، بطل دوبفونتين».

كان ثمة فصولٌ أخرى مُسلية؛ فقد ظهر في قضية طلاق، وأدار صحيفة مجتمع، وامتلك بضعة خيول سباق، وحقق تميز الظهور في «قائمة السباق» في فقرة نصَّت بجدية وعلى نحو رسمي على منع وجوده في مضمار نيوماركت هيث.

كان ظهوره في المجلس الداخلي لمنظمة المائة الحمر جديرًا بالملاحظة فقط فيما دلَّل عليه ذلك من مدى البعد التام للسياسي الأوروبي العادي عن المشاعر والأوضاع البريطانية. فقد كان طلب بارثولوميو السري لإدراجه عضوًا في منظمة المائة الحمر قد استُقْبِل بالتزكية وكانت ترقيته إلى المجلس الداخلي سريعة. أليس ضابطًا إنجليزيًّا؛

أرستقراطيًّا؟ أليس عضوًا في الدائرة الأكثر تميزًا في المجتمع الإنجليزي؟ هكذا حاجَجت منظمة المائة الحمر، التي لم يكن شخص تابع في هيئة حقيرة يختلف لديها اختلافًا ملحوظًا عن قائد لسلاح الفرسان.

استعان بارثولوميو بالكذب للوصول إلى الدائرة؛ لأنه وجد، كما تشكَّك منذ البداية، أن ثَمة دورًا فعَّالًا للإرهاب. فكان ثَمة مِنَح لأعمال الخدمة السرية، وبخياله الخصب لم يكن صعبًا أن يجد مبرراتٍ وأسبابًا للتقرب من المسئول التنفيذي المالي لمنظمة المائة الحمر على فترات متكررة. فزعَم أن لديه صلاتٍ قويةً مع شخصيات مَلكية. ولم يذكر كحقيقة واقعة أنه كان موثوقًا به لديهم فحسب، بل أشار إلى وجود صلات عائلية لم تكن مَدعاة لكثيرٍ من الفخر لدى أسلافه.

كانت منظَّمة المائة الحمر مُضارَبة مجزية؛ إذ كانت عضوية المجلس الداخلي مربحة للغاية. كان قد قام بمجازفة عشوائية عندما كان في ضائقة — تمثلت في مذكرة حجز صدرت بإيعاز من مالك منزل مُلحٍّ بالطلب — إذ سَطَّر رسالة إلى شخصية ثورية، عارضًا أن يقوم بدور ممثل لندن لصالح منظمة كانت تُعرَف حينئذٍ باسم «أصدقاء الشعب»، لكنها أُدمِجَت منذئذٍ ضمن الكِيان الاعتباري لمنظمة المائة الحمر. من الضروري معالجةُ سوابق هذا الرجل معالجةً تامة؛ لأنه لعب دورًا في الأحداث المؤرَّخة في مجلس العدالة التي كان لها تأثيراتٌ أبعدُ أثرًا مما يُمكن لبارثولوميو، مرتزق الأناركية، أن يتخيَّل في أكثر لحظات خياله جموحًا.

كان واحدًا من سبعة اجتمعوا في غرفة الاستقبال القذرة في نُزُل في شارع جريك، وكان جديرًا بالإشارة أن خمسة من رفاقه حيَّوه باحترام يصل إلى حد التواضع. كان الاستثناء هو ستارك الذي، إذ وصل متأخرًا، وجد دائرة من المعجبين متحلقة حول كلمات هذا الشاب ذي العينَين الماكرتَين، وتجهَّم معرِبًا عن امتعاضه.

رفع بارثولوميو رأسه ونظر بينما كان ستارك يدخل وأشار إليه برأسه بلا مبالاة.

اتخذ ستارك مكانه على رأس الطاولة، وأشار بانعدام صبر إلى الآخرين أن يجلسوا. قام واحد من مقعده وأحكم إغلاق الباب، وتلك كانت مهمته. كانت النوافذ مغلقة، لكنه تحقَّق من المصاريع؛ ثم أخرج من جيبه مجموعتَي أوراق لعب، نثرهما في كومة فوضوية على الطاولة. أخرج كلُّ رجل حَفنةً من المال ووضَعها أمامه.

كان ستارك رجلًا ألْمَعيًّا وكان قد تعلم أمورًا كثيرة في روسيا. من الممكن أن تتعامل الشرطة بصورة سريعة مع الرجال الذي يتجمعون حول طاولة خضراء مغطاة باللباد

وأبواب موصَدة إذا لم يتَّضح عذر كافٍ لوجودهم، ودفع غرامة مائة روبل من أجل المقامرة أفضل من الزج في السجن دون سابق إنذار لمدة غيرِ محددة من الأشغال الشاقة في المناجم بناءً على شُبهة الضلوع في مخطط ثوري.

شرع ستارك حينئذٍ في عمل الليلة. والحق يُقال أنه لم يكن ثمة اختلافٌ كبير بين الإجراءات السابقة وإجراء اللجنة العادية.

كان يتعين التصويت على مبالغَ مالية؛ فقد احتاج بارثولوميو إلى مواردَ من أجل رحلة إلى باريس، حيث كان يأمُل، بصفته ضيفًا لشخصية لامعة، أن يحصل على معلومات ذات أهمية حيوية لمنظمة المائة الحمر.

قال ستارك بحدَّة: «هذا هو التصويت الرابع في شهرَين، يا رفيق. في المرة الأخيرة كان على معلومات من وزارة خارجيتكم، وثبَت أنها غيرُ دقيقة.»

هز بارثولوميو كتفَيه متظاهرًا بعدم الاكتراث.

قال: «إن كنت تشكُّ في حكمة التصويت على المال، فانسَ الأمر. إن تطلُّعات رجالي مرتفعة؛ فأنا لا أُعطي رشاوى لرجال شرطة أو موظَّفين دبلوماسيين في مراتبَ دنيا.»

قال ستارك بتجهم: «ليست مسألة مال. إنها مسألة نتائج. لدينا مال وفير، ولكن نجاح مسيرتنا المجيدة يعتمد على موثوقية معلوماتنا.»

أُقِرَّ التصويت، وبإقراره حلَّ وجومٌ على المجلس.

مال ستارك إلى الأمام وأخفض صوته.

قال: «ثمة أمور تحتاج إلى إيلاء اهتمام عاجل منكم.» وأخرج ورقة من جيبه، وفتحها باسطًا إياها أمامه. «لقد مضى وقت طويل دون نشاط منا حتى أصبح الطغاة الذين يمتلئون رعبًا من اسم المائة الحمر يعتبرون أنفسَهم بمنأًى عن الخطر.» انخفض صوته أكثر وهو يقول: «غير أننا اليوم في عشية أعظم إنجازاتنا، حين يتأثر من يقهرون الشعب بضربة واحدة! وسنضرب الملكية ضربةً سيذكرها تاريخ العالم إلى الأبد، حينما تُنسى انتصاراتُ قيصر والإسكندر، وحينما يغشى ترابُ وحطام ألف عام مشاهدَ أعمالنا. لكن ذلك اليوم العظيم لم يَحِنْ بعد؛ علينا أولًا أن نُزيح الرجال الأدنى شأنًا الذين ستُصيبهم الضربة بكل تأكيد؛ أولًا الخادم، ثم السيد.» ونخَز القائمة التي أمامه بسبَّابة غليظة.

قرأ: «فريتز فون هيدليتز، مستشار دوقية هامبورج — ألتونا.»

جال بناظِرَيه بين أفراد المجلس وابتسم.

«رجلٌ يمتلك بعضًا من روح المبادرة، يا رفاق؛ فقد أحبط محاولتنا مع سيِّده ببعض الدهاء؛ هل أُصرح برغبتكم حين أقول ... الموت؟»

«الموت!»

كانت تلك همهمة جماعية ردَّدَت قوله.

قالها بارثولوميو، المتمرد والمغامر، تلقائيًّا. لم يكن يعنيه أن يموت سيد مهذَّب شجاع دون جريرة سوى أنه خدم سيده بإخلاص.

قرأ ستارك: «الماركيز دي سانتو ستراتو، السكرتير الخاص لأمير الإسكوريال.»

مجددًا جاءت الهمهمة: «الموت!»

قرأ ستارك الأسماء واحدًا تلو الآخر، متوقفًا بين فينة وأخرى ليُشدد على بعض الفظاعة المتسِم بها الرجلُ قيد الاستعراض.

قال وهو ينقر على الورقة: «ها هو هيندريك هوسمان، من شرطة برلين السرية؛ رجل متطفِّل وخطير. لقد تمكَّن بالفعل من القبض على أحد الرفاق وإيقاع العقاب به.»

همهم المجلس تلقائيًّا: «الموت.»

استغرقت القائمةُ نصفَ الساعة للفراغ منها.

قال ستارك: «ثمة أمر آخر.»

اضطرب أفراد المجلس في جلستهم؛ لأن ذلك الأمر الآخر كان الشاغلَ الرئيسي في ذهن كلٍّ منهم.

تابع رئيس المجلس، وقد فقد صوتُه تلك الثقةَ التي اتسم بها حديثُه السابق: «لقد تعرَّضنا، بوسيلةٍ ما، للخيانة. ثمة تنظيم — تنظيم يُمثل ردَّ فعل — عزَم على إفشالنا. ذلك التنظيم اكتشف هُويتنا.» وتوقف عن الكلام قليلًا.

تابع قائلًا: «هذا الصباح تلقيتُ رسالة دعَتني برئيس المجلس الداخلي، واحتوَت على تهديد لي.» ومجددًا توقف عن الكلام.

«كانت تحملُ توقيع «رجال العدالة الأربعة».»

استُقبِلَت عبارته بصمت تام — صمتٍ أربكه — إذ كان تعويضه النفسيُّ عن الصدمة التي تلقاها يكمن في توقع الشعور الذي من شأن تصريحه هذا أن يصنعه.

وسرعان ما اتضَح له سببُ الصمت.

قال فرانسوا بهدوء: «أنا أيضًا تلقيتُ رسالة.»

«وأنا.»

«وأنا.»

«وأنا.»

كان بارثولوميو هو وحده الذي لم يتكلم، وشعر بالاتهام غير المعلن من الآخرين.

فقال بضحكة خفيفة: «أنا لم أتلقَّ رسالة. فقط هاتَين.» تحسس جيب صدريته وأخرج حبتَي فاصولياء. لم يكن ثمة شيءٌ غير مألوف في هاتَين الحبتَين عدا أن إحداهما كانت سوداء بلونها الطبيعي والأخرى طُلِيَت باللون الأحمر.

تساءل ستارك بارتياب: «ماذا تعنيان؟»

أجاب بارثولوميو بابتسامة هازئة: «ليس لديَّ أدنى فكرة. لقد جاءتا في صندوق صغير، مثل الذي تُرسَل فيه المجوهرات، ولم يكن معها أي رسالة أو أي شيء من هذا القبيل. هذه الرسائل الغامضة لا تُقلقني كثيرًا.»

تساءل ستارك بإصرار: «ولكن ماذا يعني هذا؟» واشرأبَّت الأعناقُ كلها نحو البذرتَين؛ وتابع قائلًا: «لا بد أنَّ لها مدلولًا ما. فلتُفكر.»

تثاءب بارثولوميو.

قال بلا مبالاة: «على حد علمي، لا يوجد لهما تفسير. فلم يكن لحبوب الفاصوليا الحمراء أو السوداء أيُّ دور بارز في حياتي، على حد ...»

توقف عن الكلام وشاهدوا موجة لون تندفع إلى وجهه، ثم تتلاشى، تاركةً إياه شاحبًا للغاية.

تساءل ستارك: «ما هذا؟» وكان ثمة وعيد في السؤال.

تلعثم بارثولوميو قائلًا: «دعني أرَ»، وأمسك بحبة الفاصولياء الحمراء بيد مرتعشة.

قلَّبها في يده مرارًا وتَكرارًا، مستدعيًا ما لديه من مخزون القوة.

كان ما أدركه هو أنه لم يكن باستطاعته التفسير.

ربما كان التفسير سيُصبح ممكنًا لو كان قد أدرك قبلئذٍ فحوى الرسالة التي تلقاها، ولكن الآن مع وجود ستة أزواج من العيون المتشككة مصوَّبة نحوه، ومع ارتباكه لاحظ في حينه أن تردُّده سيوحي بما في غير صالحه.

واضطُرَّ إلى اختلاق قصة من شأنها أن تكون مقبولة لديهم.

ابتدأ الحديث محافظًا على ثبات صوته، قائلًا: «منذ سنوات، كنت عضوًا في منظمة كهذه؛ و... وكان ثمة خائن.» حينئذٍ اتضحت له القصة، واستعاد توازنه. «اكتُشِف الخائن واقترعنا على حياته. وكانت نتيجة الاقتراع عددًا متساويًا ممن يريدون قتله ومَن يريدون الإبقاء على حياته، وتعين عليَّ بصفتي الرئيس أن أُعطي التصويت المُرَجِّح. وكانت حبة

فاصولياء حمراء تُمثل الإبقاء على حياته وأخرى سوداء تُمثل قتله، وجاء تصويتي لصالح قتل الرجل.»

رأى الانطباع الذي صنعَته قصته المختلقة واستفاض في القصة. أخذ ستارك يفحص بعناية حبة الفاصولياء الحمراء التي كان يُمسك بها في يده.

«لديَّ سبب يجعلني أظن أن بتصرفي ذاك صار لي أعداء كثيرون، ومن المحتمل أن يكون أحدهم هو من أرسل رسالة التذكير هذه.» تنهَّد تنهيدة ارتياح داخلية عندما رأى غيوم الشك تنقشع عن الوجوه المحيطة به. ثم ...

سأله ستارك بهدوء: «والألف جنيه؟»

لم يرَ أحد بارثولوميو وهو يعَض على شفته؛ لأن يده كانت تُمسد شاربه الأسود الناعم. ما لاحظوه جميعًا كان المفاجأة المصطنعة جيدًا والتي عبر عنها برفع حاجبَيه.

قال متحيرًا: «الألف جنيه؟» ثم ضحك. وأضاف بسخط: «أوه، أرى أنك أنت أيضًا قد سمعت القصة. لقد وجدنا أن الخائن قد قبل بهذا المبلغ ليخوننا. وصادرناه لصالح المنظمة. وذلك عن حق.»

أزالت همهمة الاستحسان عنه أي خوف نتيجة تفسيره. حتى ستارك ابتسم.

وقال: «لم أكن أعرف القصة، ولكنني رأيت عبارة «الألف جنيه» التي كانت منقوشة على جانب حبة الفاصولياء الحمراء؛ ولكن هذا لا يجعلنا نقترب من حل اللغز. من الذي خاننا لصالح «رجال العدالة الأربعة»؟»

وبينما كان يتحدث، جاء صوت طرق خفيف على باب الغرفة. بخفة قام فرانسوا، الذي كان يجلس عن يمين الرئيس، وسار على أطراف أصابعه إلى الباب.

سأل بصوت منخفض: «من الطارق؟»

تكلم شخص ما بالألمانية، وانتقل الصوت حتى عرَف الجميع هُوية المتكلم.

قال بارثولوميو: «امرأة جراتس»، وبدافعٍ من تلهُّفِه هب واقفًا.

لو كان أحدهم يبحث عن سبب الخصومة بين ستارك والقائد السابق للفرسان غير النظاميين، فهذه كانت نهاية البحث. فقد أفصح اللهيب، الذي ظهر في عينَي هذَين الرجلَين لدى دخولها الغرفة، عن القصة.

وقف ستارك، الرجل الضخم الجثة الشهواني، ليُحيِّيها ووجهه متوهج.

تمتم قائلًا: «سيدتي»، وقبَّل يدها.

كانت متأنقة بما يكفي، مرتدية معطفًا فاخرًا من فراء السمور كان منطبقًا بإحكام على قوامها المتموج، وقبعة من الفراء على رأسها الجميل.

رفعت يدًا ترتدي قفازًا نحو بارثولوميو وابتسمت.

كان لبارثولوميو، مثل منافسه، طريقةٌ مع النساء؛ ولكنها كانت طريقة رقيقة، مُثقَلة بأعراف غربية ومقيدة بآداب محددة. صحيح أنه كان شريرًا حقيرًا حسب مفاهيمنا، لكنه تلقى تدريبًا أوليًّا في عالم السادة المحترمين. تحرك وسط الرجال الذين خلعوا قبعاتهم للجنس اللطيف، وتحكموا في تصرفاتهم بناءً على قواعد غامضة. ولكنه تصرف بمغالاة أكبر مما فعل ستارك؛ إذ أمسك بيدها، ناظرًا إلى عينَيها، بينما تململ ستارك بنفاد صبر.

أخيرًا قال بحدة: «أيها الرفيق، سنُؤجل حديثنا مع ماريا الصغيرة. سيبدو من السيئ لها أن تظن أنها تُعطلنا عن عملنا، وهنالك مسألة الأربعة ...»

رآها ترتجف.

كرَّرت قائلةً: «الأربعة؟ إذن فقد كتبوا لك، أيضًا؟»

ضرب ستارك بقبضته على الطاولة.

«أنتِ، أنتِ! أتجرَّءُوا على تهديدك أنتِ؟ بحق السماء ...»

قالت: «أجل»، وتابعت، وقد بدا أن صوتها العذب الرخيم قد صار مبحوحًا قليلًا: «لقد هددوني.»

أرخَت الفراء عن رقبتها كما لو أن الغرفة قد صارت فجأة حارةً وصار الجو خانقًا.

أوقفت النظرة التي بدَت على وجهها سيلَ الكلمات الذي تداعى باضطراب على شفتَي ستارك.

تابعت تقول ببطء: «ليس الموت هو ما أخشاه. في الواقع، لا أكاد أعرف ما الذي أخشاه.»

قاطع بارثولوميو السطحي الذي لم يتأثر بالغموض المأساوي لصوتها، الحديث عندما سكتوا؛ إذ أسكتهم ابتِئاس الفتاة.

تساءل ضاحكًا: «مع وجود رجال مثلِنا حولك، لماذا يتعيَّن عليكِ أن تُلاحظي الأداء المزيف لأولئك «رجال العدالة الأربعة»؟» ثم تذكر حبتَي الفاصولياء وحلَّ عليه الصمت فجأة مع الباقين.

كانت الرجفة، التي حلت عليهم عند نُطق اسم عدوهم، بالغةً وبلا تفسير، وبالتأكيد أثَّر فيهم مشهد امرأة جراتس التي كانت الدموع على وشك أن تنسال من عينَيها، حتى إنهم سمعوا عندئذٍ ما لم يسمَعه أحدهم من قبل؛ وهو صوت دقات ساعة الحائط.

كانت العادة المتأصلة لأعوام كثيرة هي التي جعلت بارثولوميو يضع يده في جيبه، وبتلقائية أخرج ساعته، وبطريقة آلية نظر بعينَيه في أرجاء الغرفة بحثًا عن ساعة الحائط ليتأكد بواسطتها من الوقت.

كانت واحدة من تلك الأشتات المتضاربة من الأمور الاعتيادية التي تُقحِم نفسها عنوةً في الفاجعة، لكنها أطلقت ألسِنةَ أفراد المجلس، وتكلموا كلهم معًا.

كان ستارك هو من ضم يدَي الفتاة المرتعشتَين بين راحتَيه المكتنِزتَين.

وبَّخَها برفق قائلًا: «ماريا، ماريا. هذه حماقة. ماذا! امرأة جراتس التي تحدَّت روسيا كلها — التي وقفت أمام ميرتوسكي وتحدته وجهًا لوجه — ما الأمر؟»

كانت الكلمات الأخيرة حادة وغاضبة وكانت موجهة إلى بارثولوميو.

للمرة الثانية في تلك الليلة شحب وجه الرجل الإنجليزي، ووقف قابضًا على حافَة الطاولة بعينَين محدقتَين وفكُّه السفلي متدلٍّ.

صاح ستارك، ممسكًا بذراعه: «يا إلهي، أيها الرجل! ما الأمر. تكلم. إنك تُخيفها!»

قال بارثولوميو بصوت أجوف لاهث: «ساعة الحائط! أين، أين ساعة الحائط؟»

جالت عيناه المحدقتان بعجز من جانب إلى جانب. همس قائلًا: «أنصِت.» وحبسوا أنفاسهم. كانوا يسمعون الصوت بوضوح شديد بالفعل «تِك، تِك، تِك.»

تمتم فرانسوا: «إنها تحت الطاولة.»

أمسك ستارك بقطعة القماش ورفعها. تحتها، في الظل، رأى الصندوق الأسود وسمع الأزيز المشئوم لآلية الساعة. صاح مزمجرًا: «بالخارج!» وانطلق نحو الباب. كان موصَدًا، ومن الخارج.

أخذ يرمي جسده الضخم على الباب مرارًا، لكن الرجال الذين كانوا متزاحمين حوله، ينوحون وقد سال لُعابهم من خوفهم المثير للشفقة، احتشدوا حوله ولم يدَعوا له متسَعًا.

بيدَيه القويتَين قذفهم يَمْنة ويَسْرة، ثم اندفع نحو الباب بقوة، مستحضرًا كل وزنه وما بوُسعه من قوة، فانفتح الباب متحطمًا.

كانت امرأة جراتس هي الوحيدةَ في المجموعة التي حافظت على هدوئها. وقفت بجوار الطاولة، وقدمُها تكاد تلمس الآلة اللعينة، وشعرت بالذبذبات الضعيفة لعملها. ثم احتضنها ستارك بين ذراعَيه وعبر الممر الضيق قادها، وهو يكاد يحملها، حتى بلَغا الشارع بأمان.

شاهد المشاة المارون المجموعة المرتبكة، واحتشدوا حولهم، بعدما اشتمُّوا وجود خطبٍ ما.

همس فرانسوا: «ماذا كان هذا؟ ماذا كان هذا؟» لكن ستارك دفعه جانبًا مزمجرًا.

استدعى سيارة أجرة كانت تمر، وأصعد الفتاة إلى داخلها، وصاح في السائق بالاتجاهات وقفز خلفها راكبًا السيارة.

بينما كانت السيارة تلتف مبتعدةً، نظر أفراد المجلس المذهولين بعضُهم إلى بعض.

كانوا قد تركوا باب المنزل مفتوحًا على مِصراعَيه وفي البهو كانت شعلة غاز خفاقة تهتز بشدة.

قال بارثولوميو وهو يلهث: «ابتعدوا عن هنا.»

قال الآخر وهو يعتصر يديه: «ولكن الأوراق، السِّجلات.»

فكَّر بارثولوميو سريعًا.

لم يكن من الممكن تركُ السجلات ملقاةً هناك من دون عواقب وخيمة. كان كل ما يعرفه أن هؤلاء الرجال المجانين قد أورَدوا ما يُدينه في كتاباتهم الشيطانية. لم تكن تنقصه الشجاعة، لكن الأمر كان يستلزم كل ما يملك من جُرأة ليُعاود الدخول إلى الغرفة التي كانت فيها آلة صغيرة في صندوق أسود تدقُّ بطريقة غامضة.

تساءل: «أين هي؟»

قال الآخر وهو يكاد يهمس: «على الطاولة.» قال الإنجليزي وقد حزم أمرَه: «يا إلهي! يا للمصيبة!»

انطلق صاعدًا الدرجات الثلاث إلى البهو. وبعد خطوتَين وصل إلى الباب، وبخطوة واسعة أخرى وصل إلى الطاولة. سمع صوت «تكتكة» الآلة، وألقى نظرة واحدة على الطاولة وأخرى على الأرض، وخرج مجددًا إلى الشارع قبل أن يأخذ نفسَين طويلَين.

وقف فرانسوا منتظرًا، وكان بقية الرجال قد اختفَوا.

صاح الفرنسي: «الأوراق! الأوراق!»

أجاب بارثولوميو وهو يجزُّ على أسنانه: «اختفت!»

على بعد أقلَّ من مائة ياردة كان ثمة اجتماع آخر منعقد.

قال بويكارت فجأة؛ إذا ساد الحديثَ فترة هدوء مؤقَّت: «مانفريد، هل سنحتاج إلى صديقنا؟» ابتسم مانفريد. وقال: «أتقصد السيد جيسين الرائع؟»

هزَّ بويكارت رأسه إيجابًا.

قال مانفريد بهدوء: «أعتقد ذلك. لست متأكدًا تمامًا من أن المنبه الرخيص الذي وضعناه في صندوق البسكويت سيكون تحذيرًا كافيًا للمجلس الداخلي، ها هو ليون.»

سار جونزاليس داخلًا إلى الغرفة وخلع معطفه الطويل بتأنٍ.

حينئذٍ رأَوا كم كان رداؤه ممزقًا، ولاحظ مانفريد المنديل الملطَّخ الذي كان معصوبًا برفق حول إحدى يدَيه.

قال جونزاليس مفسرًا باقتضاب: «زجاج. اضطُرِرت إلى أن أتسلَّق سورًا.»

سأله مانفريد: «هل كل شيء على ما يُرام؟»

أجاب الآخر: «على خير ما يُرام. لقد فرُّوا كالخِراف، ولم أفعل سوى أنني دخلت وأخذت سجلَّ الجمل المثيرَ للاهتمام للغاية الذي أغفلوه.»

كان جونزاليس مستمتعًا قليلًا وهو يقول: «ماذا عن بارثولوميو؟» «لقد كان أقلَّ ذعرًا من الباقين؛ فقد عاد ليبحث عن الأوراق.»

«هل سيقوم؟»

قال ليون: «أظن ذلك. فقد لاحظت أنه ترك حبة الفاصولياء السوداء عند فراره، لذلك أظن أننا سنرى الحمراء.»

قال مانفريد بجدية: «هذا سيُبَسِّط الأمور.»

الفصل الخامس

مجلس العدالة

كان لودر بارثولوميو يعرف رجلًا يُمارس الزراعة في أوغندا. لم يكن غريبًا أن يتذكر فجأة وجود صديقه ويستدعي إلى الذاكرة دعوةً مضى عليها ثلاث سنوات لتمضية الشتاء في ذلك الجزء من أفريقيا. كان بارثولوميو يمتلك ناديًا. كان يُسمَّى بعبارة لطيفة في جميع أفضل الأدلة بأنه «اجتماعي، وأدبي، ومسرحي»، لكن الرجال المطَّلِعين في المدينة كانوا يُطلِقون عليه تسميةً أقصر. كانوا يعتبرونه «ناديًا ليليًّا» على نحو لا يُلبي احتياجات الأعضاء المثقفين كما يجب، كانت توجد بعض المجلات الأسبوعية، وبضعة أعداد من صحيفة «التايمز»، ومجموعة من الجداول الزمنية المجانية لمن يطلبها، وسعى بارثولوميو إلى الحصول على تفاصيل عن الرحلات البحرية ووجدها؛ فقد يُغادر لندن في صبيحة اليوم التالي ويلحق بالمركب الألماني (عن طريق برينديزي والسويس) الذي من المفترض أن يرسوَ به في أوغندا بعد أسبوعَين.

في المجمل كان يظن أن هذا المسار سيكون حكيمًا.

في حقيقة الأمر، كانت مسألة المائة الحمر بصدد أن تُصبح أمرًا خطيرًا للغاية؛ كان لديه شعور بأنه موضعُ اشتباه، وكان لديه يقين أكبر أن نهاية تمويله غيرِ المحدود باتت قريبة. كان قد أدرك ذلك منذ وقت طويل، ووضع خُططَه تبعًا لذلك. فيما يتعلق برجال العدالة الأربعة، فقد يدخلون مع مينشيكوف؛ ومن شأن ذلك أن يعنيَ خيانةً مضاعفة. وبينما كان يُقلب صفحات جدول مواعيد برادشو للقطارات، استعرض موقفه في ذهنه. كان في متناوله نحوُ سَبعِمائة جنيه، ولم تكن التزاماته تشغله لأنه لم يخطر بباله قط أن يفيَ بها. سبعمائة جنيه، وحبة الفاصولياء الحمراء، ومينشيكوف.

قال في نفسه: «إن كانوا جادين، يُمكنني أن أُعَوِّل على ثلاثمائة.»

كانت الصعوبة الواضحة تتمثل في الاتصال برجال العدالة الأربعة. كان عامل الوقت هو الشاغلَ الأهم، ولم يكن بوُسع المرء أن يضع إعلانًا في الصحيفة نصه:

> إذا تواصل رجال العدالة الأربعة مع إل بي، فسوف يُحيطون علمًا بأمر في صالحهم.

لم يكن تدبيرًا ناجعًا أن يُورَد في أعمدة الإعلانات الشخصية للصحف اللندنية ولو حتى أكثر الإشارات تحفظًا إلى «حبات الفاصولياء الحمراء» بعد ما جرى في اجتماع المجلس. وكانت الاستعانة بالسفارة مسألة ساذجة. تمتم بصوت خفيض لم يسمعه أحد سواه لاعنًا رجال العدالة الأربعة على تواصلهم غير العملي. لو كانوا ذكروا أو ألمحوا إلى لقاء ما لكان من الممكن تدبير الأمر.

سأله رجل في ملابس سهرة إن كان قد فرغ من جدول القطارات. فتركه بفظاظة، ونادى نادلًا بالنادي، وطلب مشروب ويسكي بالصودا وارتمى على مقعد ليُفكر بتمعن في حل.

أعاد الرجل جدول مواعيد برادشو باعتذار مهذب.

قال: «آسف جدًّا على مقاطعتي لك، ولكني استُدعيت توًّا للسفر للخارج على وجه السرعة.»

رفع بارثولوميو رأسه ونظر بامتعاض. بدا وجه الشاب مألوفًا له.

سأله: «ألم ألتقِ بك في مكان ما من قبل؟»

هز الغريب كتفَيه.

ابتسم قائلًا: «دائمًا ما يلتقي المرء بأُناس وينساهم. لقد حسبت أني أعرفك، ولكني لا أستطيع أن أتذكر أين التقيت بك.»

لم يكن الوجه وحده هو ما كان مألوفًا، وإنما كان الصوت مألوفًا بغرابة.

كان تحليل بارثولوميو الذهني أن الرجل «ليس إنجليزيًّا. ربما يكون فرنسيًّا، والأرجح أنه سلافي. من يكون بحق الشيطان؟»

بطريقة ما كان مسرورًا بهذه التسلية المُلْهِية، ووجد نفسه منخرطًا في نقاش لطيف عن صيد السمك بالطُّعم الطائر.

عندما أشارت عقارب ساعة الحائط إلى منتصف الليل، تثاءب الغريب وقام من مقعده.

سأله بلطف: «هل أنت متجه غربًا؟»

لم يكن بارثولوميو قد وضع خططًا محددة بشأن قضاء الساعة التالية؛ لذا وافق وغادر الرجلان الناديَ معًا. تمشيا عبر ميدان بيكاديللي ومنه إلى شارع بيكاديللي، وهما يتسامران في سرور.

عبر شارع هاف مون ومنه إلى ميدان بيركلي الهادئ الخالي من المارة، سار الرجلان الهُوَيْنَى، ثم توقف الغريب وقال: «أخشى أن أكون قد حِدتُ بك عن طريقك.» أجاب بارثولوميو: «إطلاقًا.» وكان ودودًا على نحو تقليدي. ثم افترقا، وسار القائد السابق عائدًا من الطريق الذي أتى منه، وعاد إلى التقاط خيوط المشكلة التي كانت تشغل ذهنه في الجزء الأول من المساء.

في منتصف الطريق عبر شارع هاف مون كانت ثمة سيارة، وحين صار بمحاذاتها، جاء رجل كان واقفًا على الرصيف، حسبه خطأً سائقًا منتظِرًا، وأعاق مسيره. سأله باحترام: «القائد بارثولوميو؟» قال الآخر متفاجئًا: «ذاك هو اسمي.»

«سيدي يرغب في أن يعرف إن كنت قد قررت ...»

«ماذا؟»

تابع متفحصه الهادئ قائلًا: «إن كنت قد قررت اختيار الحمراء؛ ها هي السيارة، إن شئت أن تركب.»

سأله بقليل من التردد: «وإن كنتُ قد قررت اختيار السوداء؟»

قال الرجل دون انفعال: «في ظل تلك الظروف، يرى سيدي أنه من أجل سلامته الأهم، يتعين عليه أن يتخذ تدابيرَ لضمان حيادك.»

لم يكن ثمة تهديد في نبرته، بل ثقة واقعية باردة صدمت هذا المغامر الصلب.

في الضوء الخافت رأى شيئًا في يد الرجل؛ شيئًا رفيعًا براقًا كان يلمع.

قال بصوت متحشرج: «سأختار الحمراء.»

انحنى الرجل له وفتح باب السيارة.

كان بارثولوميو قد استرد بعضًا من ثقته بنفسه عندما وقف أمام الرجال.

كان معتادًا على المحاكم المستترة؛ إذ كان قد تعرض لمثلها منذ ترَقِّيه إلى المجلس الداخلي.

لكن هؤلاء الرجال الأربعة كانوا يرتدون ثياب سهرة، وكان الإطار المسرحي، الذي كانت تتسم به محكمة العدل الخاصة بالمائة الحمر، غائبًا. لم يكن يُوجَد ضبط غريب

للأضواء، ولا دويُّ أجراس، ولا فتح ستائر قاتمة. لا شيء من الخداع الرخيص الخاص بالمجلس الداخلي.

كان من الواضح أن الغرفة هي غرفة معيشة، وكانت تُشبه إلى حد كبير جدًّا مائة غرفة معيشة أخرى كان قد رآها.

كان الرجال الأربعة الذين جلسوا على مسافة متساوية أمامه عاديِّين على نحو كافٍ في مظهرهم عدا أقنعتهم. حسب أن أحدهم كان يضع لحية، ولكنه لم يكن متأكدًا. وقد تولى هذا الرجل الجزء الأكبر من الحديث.

قال بلينٍ: «أفهم أنك اخترت الحمراء.»

أجاب بارثولوميو: «يبدو أنك تعرف الكثير عن شئوني الخاصة.»

قال الرجل: «هل اخترت الحمراء، مجددًا؟»

تساءل الأسير: «لماذا، مجددًا؟»

التمعت عينا الرجل المقنَّع بثبات من خلال فتحتَي القناع.

قال بهدوء: «منذ سنوات كان ثمة ضابط خان وطنه ورفاقه.»

«تلك كذبة قديمة.»

تابع الرجل المقنع قائلًا: «كان مسئولًا عن موقع خزَّن فيه مخزونًا عظيمًا من المواد الغذائية والذخيرة. وكان ثمة قائد للعدو يُريد الحصول على تلك المؤن، ولكن لم يكن لديه ما يكفي من الرجال لاقتحام الموقع.»

كرر بارثولوميو بتجهم: «كذبة قديمة.»

«وهكذا وجد القائد الخطة العبقرية المتمثلة في تقديم رشوة. كان أمرًا محفوفًا بالمخاطر، وفي تسعمائة وتسعة وتسعين حالةً من ألف حالة، يكون عملًا لا طائل منه. في الواقع، أنا متأكد من أنني أُقلل من تقدير النسبة؛ لكن القائد الماكر العجوز كان يعرف رجله جيدًا.»

قال بارثولوميو: «لا داعي للاستمرار في السرد.»

تابع مانفريد: «لم تُمرر أي مراسلات؛ فقد كان ذلك الضابط أكثر دهاءً من أن يفعل ذلك، لكن تقرر أنه لا بد من نقل رد الضابط.»

فتح يده ورأى بارثولوميو حبتَي فاصولياء، واحدةً حمراء والأخرى سوداء، مستقرتَين في راحة يده.

«السوداء كانت تعني الرفض، والحمراء تعني القَبول، كانت الشروط تقضي بخدش جانب حبة الفاصولياء الحمراء بإبرة، وكان المبلغ المتفق عليه هو ١٠٠٠ جنيه.» لم يُجِر بارثولوميو جوابًا.

«ذلك بالضبط هو المبلغ الذي نعرضه عليك لتُمِدنا من وقت لآخر بالمعلومات التي نطلبها فيما يتعلق بتحركات منظمة المائة الحمر.»

«وإذا رفضت؟»

أجاب الرجل المقنع بهدوء: «لن ترفض. أنت بحاجة إلى المال، وحتى في هذا الحين لديك في الحسبان خطة للانفصال عن أصدقائك.»

استهل الآخر حديثه وهو يهز كتفَيه: «أنت تعرف الكثير جدًّا ...»

«أعرف قدرًا كبيرًا. على سبيل المثال، أعرف أنك تُفكر في الفرار على الفور. بالمناسبة، هل لديك علم بأن «لوكوس وورمان» راسية على رصيف ميناء نابولي وبها تسريب في إحدى الغلايات؟»

أجفل بارثولوميو، وكان ينبغي له أن يفعل، لأنه لم يكن أحد يعرف بأن لوكوس وورمان هي السفينة التي كان يأمُل في اللَّحاق بها في السويس.

رأى مانفريد حيرته وابتسم. «لا أُريد أن يُنسَب إليَّ امتلاكُ قدرات خارقة للطبيعة؛ بصراحة، كان الأمر مجردَ تخمين بحت، لكن يجب أن تعدل عن رحلتك. فمن الضروري كي نُصيب قدرًا أكبر من النجاح أن تبقى.»

عض بارثولوميو على شفتَيه. لم تتوافق هذه الترتيبات تمامًا مع خططه. فأبدى كِياسةً مفاجئة.

قال بحرارة: «حسنًا، إن كان يتعين عليَّ ذلك، فيجب أن أفعله، وبما أني أُوافق، أتسمح لي أن أسأل عن هُوية من أحظى بشرف مخاطبته؟ وأيضًا، بما أنني الآن عميلكم السري، هل يُمكنني أن أرى وجوه من أعمل لصالحهم؟»

تبين الاحتقار في ضحكة مانفريد.

قال مانفريد ببرود: «لست بحاجة إلى أن نُقدم أنفسنا لك، وسوف تفهم أننا لا ننوي أن نثق بك. اتفاقنا هو أن تُولِيَنا ثقتك، لا أن نوليَك ثقتنا.»

قال بارثولوميو بإصرار: «يجب أن أعرف شيئًا. ما الذي يتعين عليَّ فعله؟ أين سأُسلم تقاريري؟! كيف سأحصل على مستحقاتي؟»

«ستحصل على مستحقاتك عندما تنتهي من عملك.» مد مانفريد يده إلى طاولة صغيرة كانت في متناوله.

وفي الحال غرقت الغرفة في الظلام.

قفز الخائن متراجعًا إلى الوراء، خوفًا من شيء لم يعرف ماهيته.

قال صوت: «تعالَ. لا تخف.»

صاح مانفريد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: «ماذا يعني هذا؟»

شعر بأن الأرض من تحته تتراجع وحاول أن يقفز راجعًا إلى الوراء، ولكنه كان قد فقد توازنه بالفعل، وبصرخة رعب شعر أنه يسقط، ويسقط.

«أنت، استفق!»

كان أحد ما يهز ذراعه وكان واعيًا لوجود برودة شديدة وريح عاصفة شديدة كانت تلطم وجهه.

ارتجف وفتح عينَيه.

رأى أولًا جملًا حديديًّا وحَمولة على ظهره؛ ثم أدرك، وإن لم تتضح له الصورة تمامًا، أنه كان الدِّعامةَ المزينة لكرسي حديقة؛ ثم رأى حاجزًا رماديًّا باهتًا من حجر متسخ. كان جالسًا على كرسيٍّ على حاجز نهر التيمز، وشرطي يهزه بلطف ليستفيق.

«تعالَ، يا سيد، هذا لن يُجدي، أنت تعرف.»

ترنَّح واقفًا على قدمَيه بغير ثبات. كان يرتدي معطفًا من الفرو لم يكن يخصه.

تساءل بصوت كليل: «كيف جئتُ إلى هنا؟»

ضحك الشرطي بمرح.

«آه، ذلك أكثر مما بوسعي إخبارك به. أنت لم تكن هنا منذ عشر دقائق، وأنا متأكد من ذلك.»

وضع بارثولوميو يده في جيبه ووجد بعض المال.

قال له مترنحًا: «اطلب لي سيارة أجرة.» وعثرا على واحدة.

وترك الشرطي وهو راضٍ تمامًا بنتيجة عمله الصباحي ومضى بالسيارة إلى مسكنه. بأي وسيلة استثنائية وصل إلى حاجز النهر؟ تذكر رجال العدالة الأربعة، وتذكر الغرفة التي غرقت فجأة في الظلام، وتذكر السقوط؛ ربما يكون قد فقد وعيه. لكنه لا يُمكن أن يكون قد أُصيب جراء سقوطه. وتذكر على نحوٍ غير واضح شخصًا ما أخبره بأن يتنفس واستنشاقه بخارًا حلوًا مثيرًا للغثيان. ولم يذكر شيئًا بعد ذلك.

لم يكن المعطف يخصه. دسَّ يدَيه في الجيبَين ووجد رسالة. لم يكن يعرف أن لها الملمسَ الغريب الذي جعل الورق الرمادي المخضرَّ الخاص برجال العدالة الأربعة شهيرًا في أنحاء أوروبا.

كانت الرسالة موجزة ومباشرة:

على الخدمة المخلصة، ستُكافَأ؛ أما على الخيانة، فلن يكون ثمة شبكة تعوق سقوطك.

ارتجف مجددًا. ثم أغضبه عجزه وقلة حيلته، وأخذ يتلفظ بصوت خفيض وضعيف.

كان يجهل المكان الذي جرى فيه اللقاء. كان قد حاول دون جدوى في طريقه إلى هناك أن يتتبع الطريق الذي سلكته السيارة المغلقة.

لم يكن لديه أدنى فكرة عن الطريقة التي سينقل بها رجال العدالة الأربعة تعليماتِهم إليه. ولكن كان مقتنعًا تمامًا بأنهم سيجدون سبيلًا.

وصل إلى شقته وهو يشعر بدوار في رأسه من أثر المخدر الذي أعطوه له، وارتمى بملابسه على سريره ونام. نام حتى ما بعد الظهيرة، ثم استيقظ وهو يشعر بالتوتر وجسده متيبس. أنعشه الاستحمام وتغيير ملابسه، وخرج للوفاء بموعد كان قد حدده.

في طريقه تذكر بتبرم أنه كان ثمة استدعاء إلى المجلس في الساعة الخامسة. ذكَّره هذا بأيام تدريبه الخوالي. ثم تذكر أنه لم يُحدَّد مكان لاجتماع المجلس. كان من المزمع أن يجد فرانسوا الهادئ في ميدان ليستر؛ لذا حوَّل مساره إلى ذلك الاتجاه.

انتظره فرانسوا بصبر وابتسام وإجلال كعادته. قال: «لقد انعقد المجلس في الساعة الثانية، وعليَّ أن أُخبرك بأننا اتخذنا قرارًا بشأن مشروعَين.» وأخذ ينظر يمنة ويسرة، بحرص بالغ.

قال: «في جرافسيند»، نَطَقها «جوايسيند»، «توجد سفينة حربية موضوعة في المخازن. إنها السفينة «جروندوفيتش»، سيكون حاضرًا في ذهنك أن الربان هو النبيل سفاردو. لا يوجد ما يدعونا إلى أن نُحبَّه.»

سأله بارثولوميو: «والثاني؟»

مجددًا مضى فرانسوا في استخدام الإيماء الصامت الذي انزعج منه رفيقه من قبل.

قال بنبرة انتصار: «ليس أقلَّ من البنك.»

ارتعب بارثولوميو.

قال: «البنك، بنك إنجلترا! يا إلهي، لقد جُنِنتم! لقد فقدتم عقولكم!»

هز فرانسوا كتفَيه بتسامح.

وقال: «هذه هي التعليمات.» ثم قال باقتضاب: «إلى اللقاء.» وبانحناءته الخفيفة المغالى فيها، ذهب.

لو كانت حاجة بارثولوميو إلى الانفصال عن المائة الحمر موجودة في السابق، فقد تضاعفت هذه الضرورة الآن ألف مرة. زال من عنده أيُّ شك عالق، وأقلُّ ذرة من وخز الضمير بشأن الدور الذي اضطلع به.

نظر إلى ساعته، وأسرع إلى وجهته.

كانت الحجرة الحمراء في فندق لابورن هي ما ينشده.

وجد طاولة وطلب مشروبًا.

كان النادل كثيرَ الكلام على غير العادة.

وقف النادل إلى جانب الطاولة المنعزلة التي جلس عليها بارثولوميو، ودردش بود واحترام. ولاحظ الزبائن الآخرون الذين اعتادوا ارتياد المكان ذلك بفتور، وتساءلوا عما إذا كان الأمر المشتركُ بين الاثنَين الذي كان النادل يتحدث بشأنه هو سباقَ خيل أم مِلكيةَ منزل.

كان النادل يتحدث.

«... أنا ميال إلى عدم تصديق قصة سفينة جروندوفيتش، لكن السفارة والربان يعرفان، متى ستغادر؟»

قال بارثولوميو: «ما إن يكون بوسعي ذلك.»

أومأ النادل برأسه ونفض بعضًا من رماد سيجارة من فوق الطاولة بمنديله.

تساءل: «وامرأة جراتس؟»

أبدى بارثولوميو إيماءة تُفيد التشكُّك.

قال النادل وهو ينظر بتفكير إلى خارج النافذة: «لماذا لا تأخذها معك؟»

كانت بذرة هذه الفكرة في ذهن بارثولوميو، لكنه لم يكن قد نطق به مطلقًا؛ ولا حتى لنفسه.

«إنها جميلة جدًّا، وخطر لي أنها ليست غير مبالية تمامًا بمحاولاتك لاستمالتها؛ فهذا النوع من النساء لديه ميل إلى من هم على شاكلتك، وبصراحة سيسرنا أن نراها قد ابتعدت عن طريقنا، أو ميتة.»

لم يكن إم مينشيكوف محبًّا للانتقام على الإطلاق، لكن كان ثمة إخلاص واضح في صوته عندما تلفظ بالكلمتَين الأخيرتَين. كان إم مينشيكوف في السابق الذراعَ اليمنى للقائد الأعلى للشرطة السرية لسنوات طويلة؛ حتى إنه لم يكن من الممكن أن يشعر بأي تأنيب ضمير بصدد مشروع التخلص من عدوٍّ للنظام.

قال بتأمل: «لقد ظننت أننا نلنا منها ذات مرة. كانوا سيتخلصون منها في قلعة سانت بيتر وسانت بول، لكنني منعتهم. وأظن أنها كانت ممتنَّة لذلك، وعطوفة للغاية، ولكن الأمر انتهى.»

دفع بارثولوميو ثمن مشروبه، وبتفاخر منح بقشيشًا للرجل المتزلف الواقف أمامه. وتذكر وهو يفعل ذلك أن مينشيكوف كان مليونيرًا.

قال مينشيكوف بجدية: «الباقي يا سيدي.» وأعاد له بضعة بنسات مجلجلة وورقتَين نقديتَين مطويتَين بإحكام تُعادلان مائة جنيه. كان يُؤمن بمبدأ «ادفع الاستحقاقات أولًا بأول.» ووضع بارثولوميو النقود في جيبه بلا مبالاة.

وقال بصوت مرتفع: «طاب يومك.»

قال النادل: «إلى اللقاء، يا سيدي، ورحلة موفَّقة.»

الفصل السادس

الأميرة الثائرة

كانت امرأة جراتس تتحلَّى بمشاعرَ إنسانية للغاية. لكنها كانت تبدو لبارثولوميو شيئًا مصنوعًا من الثلج، بدون مشاعر؛ مجرد امرأة جميلة كانت تجلس على مقعد مستقيم الظهر، تنظر إليه بعينَين هادئتَين متشككتَين. كانا في شقتها في بلومزبري في مساء اليوم التالي لمقابلته مع مينشيكوف. أصابه برودها بقُشَعْريرة، وضيق الخناق على الشغف في حديثه، وصدر ما قاله بتردد، وبدا ضعيفًا وغيرَ مقنِع.

«لكن لماذا؟» كان ذلك كلَّ ما سألَته. كان قد توقف عن الكلام ثلاث مرات بطريقة جذابة، آملًا في التشجيع، لكن جوابها كان هو نفسه.

تكلم بطريقة غير مترابطة، وعشوائية. كان الخوف من رجال العدالة الأربعة من جهة والرعب من المائة الحمر من الجهة الأخرى، يُشكلان ضغطًا على أعصابه.

رأى فرصة للهرب من الاثنَين، والتحرر من التحكم المطبق لهاتَين المنظمتَين، وأمامه النطاق الواسع لبرية غير مطروقة، لا يُمكن أن يلحقه فيها انتقامُ أيٍّ منهما.

كانت جنة عدن تلوح في الأفق؛ وكان ينشد حواء.

تغلبت فكرة الحرية المقبلة على الكآبة التي فرضها برودها.

«ماريا، ألا ترين؟ أنت تُضيعين حياتك في القيام بعمل هذا الرجل، عمل هذا القاتل! لقد خُلِقتِ من أجل الحب ومن أجلي!» أمسك بيدها ولم تسحبها، لكن الراحة التي ضغط عليها لم تكن تستجيب ولم تُشِح العينين الفاحِصتين عن وجهه.

سألت مجددًا: «لكن لماذا؟ وكيف؟ أنا لا أحبك، ولكن أحب أي رجل، ولك عملك ولي عملي. ثمة القضية وقَسَمك. رفاقك ...»

هب واقفًا فجأة وطرح يدها. للحظة وقف جاثمًا عليها، محملقًا بعبوس في وجهها الشاخص لأعلى.

قال ضاحكًا وهو يصرُّ بأسنانه سخطًا: «العمل! الرفاق! هل تظنين أنني سأُخاطر بعنقي الثمين أكثرَ من هذا؟»

لم يسمع الباب وهو ينفتح بهدوء، ولا بوقع أقدام الرجلَين اللذَين دخلا.

تابع بعنف: «هل أنت عمياء مثلما أنت مجنونة؟ ألا ترين أن الأمر قد انتهى؟ رجال العدالة الأربعة يُمسكون بنا جميعًا في قبضتهم! لقد تمكَّنوا منا هكذا!» وفرقع بإصبعَيه بازدراء. «إنهم يعرفون كل شيء، حتى المحاولة المزمع القيام بها مع أمير الإسكوريال! ها! ذلك يُباغتكِ، لكنه حقيقي، كل كلمة أقولها، يعرفونها.»

قالت ببطء: «إن كان هذا صحيحًا، فثَمة خائن.»

أشاح بيده بلا مبالاة، مُقرًّا بالاحتمال ورافضًا له في الوقت نفسه.

قال ببساطة: «ثمة خونة دائمًا، عندما يكون مقابل الخيانة مُجزيًا، ولكن سواء كان يوجد خائن أم لا، فإن لندن تغلي على صفيح ساخن بالنسبة لي ولكِ.»

صححَت له الفتاة قوله قائلة: «لك أنت.»

قال بهمجية؛ مختطفًا يدها مجددًا: «ولكِ أنتِ. لا بد أن تأتي، أتسمعين، أيتها المرأة الباردة الجميلة، لا بد أن تأتي معي!»

شدها إليه، لكن يدًا أمسكت بذراعه، واستدار ليُواجه وجه ستارك، الذي كان حانقًا ومتوترًا، وتظهر عليه أماراتُ غضب صامت.

كان ستارك مستعدًّا للسكين أو للمسدس، ولكن ليس للمرفق الذي أصابه بالكامل في وجهه وألقى به مترنحًا على الحائط.

استعاد توازنه بسرعة، وأشار إلى فرانسوا، الذي استدار وأغلق الباب.

«ابتعِد عن ذلك الباب!»

«انتظر!»

مسح ستارك الدمَ من على وجهه بظهر يده وقد تسارعَت أنفاسه.

قال بنبرته الصادرة من حلقه: «انتظر. قبل أن تذهب ثمة مسألة يجب تسويتها.»

قال الإنجليزي: «في أي وقت، وفي أي مكان.»

التقط ستارك نفَسًا وقال: «لا أقصد الضربة. تلك لا شيء؛ الأمر الذي أقصده هو مسألة المجلس الداخلي، أيها الخائن!»

مد ذقنه إلى الأمام وهو ينطق بالكلمة الأخيرة بصوت كالفحيح.

كان أمام بارثولوميو وقت قليل جدًّا ليتخذ قراره بشأن النهج الذي سيتبعه. كان أعزل؛ لكنه كان يعرف بغريزته بأنه لن يكون ثمة إطلاقٌ للرَّصاص. ما كان عليه أن

يخشاه هو السكين؛ فأمسك بظهر كرسي. لو استطاع أن يُبقيهما على مسافة منه فقد يبلغ الباب ويخرج بأمان. لعن حماقته لتوانيه في القيام بالانقلاب الذي كان سينجح في الزج بستارك في السجن.

«لقد خنتنا لصالح رجال العدالة الأربعة، لكن ربما ما كنا سنعرف أبدًا بذلك؛ لأن رجال العدالة الأربعة ليس لديهم خدم يتكلمون. لكنك بعتنا للسفارة، وتلك كانت سقطتَك.» كان قد استعاد هدوءه.

«أرسلنا إليك رسالة نُخبرك فيها بنيتنا تدميرَ بنك إنجلترا. تلقى البنك تحذيرًا، من رجال العدالة الأربعة. أخبرناك بمحاولة الاعتداء على سفينة جروندوفيتش، فتلقى الربان تحذيرًا من السفارة؛ لقد أُدِنت مرتَين. لم نُفكر مطلقًا في القيام بأي اعتداءات من هذا القبيل. لقد اختُرِعَت من أجلك، وها قد سقطت في الفخ.»

أمسك بارثولوميو بالكرسي مجددًا. أدرك على نحو مبهم أنه في مواجهة مع الموت، ولثانية استحوذ عليه ذعر شديد.

تابع ستارك بتأنٍ: «الليلة الماضية اجتمع المجلس سرًّا، وتُلي اسمك من القائمة.» جف حلقُ الإنجليزي.

«وقال المجلس في صوت واحد ...» توقف ستارك عن الكلام لينظر إلى امرأة جراتس. وقفت هادئة وأصابع يدَيها متشابكة، ولا يبدو عليها القَبول ولا الرفض. للحظةٍ نظر بارثولوميو هو الآخر إلى وجهها، لكنه لم يرَ لا الشفقة ولا الإدانة. كان وجه القدر؛ وجه متعنِّت، وغير عقلاني، ومحتوم.

قال ستارك بصوت ناعم جدًّا، حتى إن الرجل الذي كان في مواجهته كان بالكاد يسمعه: «كان الحُكم هو الموت.»

بحركة سريعة كالبرق رفع يده وألقى بالسكين. تأوه الرجل الذي تلقى الضربة قائلًا: «اللعنة عليك.» وتحسست يداه العاجزتان صدره، ونزل على ركبتَيه وضربه فرانسوا ضربة دقيقة.

نظر ستارك مجددًا إلى المرأة.

تمتم قائلًا: «إنه القانون.» لكنها لم تُجب.

فقط تفقدَت عيناها الجسدَ المكوَّم على الأرض وارتعشت شفتاها.

همس ستارك: «يجب أن نهرب من هنا.»

كان يرتعش قليلًا؛ إذ كان هذا عملًا جديدًا عليه. كانت قُوى الغيرة والخوف على أمانه الشخصي قد جعلَته يأخذ على عاتقه المهمة التي كان في مناسبات أخرى يتركها لرجال أدنى شأنًا.

«مَن الذي يقطن في الشقة المقابلة؟»

واختلس النظر عبر الباب.

أجابت بهدوئها المعهود، وبنبرة رصينة: «طالب، كيميائي.»

احمرَّ وجه ستارك، إذ جاء صوتها الذي بدا شبهَ حادٍّ بعد المباحثة الهامسة بينه وبين رفيقه.

ناشدها قائلًا: «بهدوء، بهدوء.»

تراجع بحذر شديد إلى الموضع الذي تمدَّد فيه الجثمان، ودار حوله دورة كاملة، وأنزل الستارة. لم يكن بوسعه تفسيرُ الدافع الغريزي الذي جعله يفعل هذا. ثم عاد إلى الباب وأدار المقبض برفق، وهو يُشير إلى الشخصَين الآخرَين. بدا له أن المقبض أدار نفسَه، أو أن أحدًا ما على الناحية الأخرى كان يُديره في الوقت نفسه.

كان هذا هو ما اكتشفه، إذ ارتجَّ الباب منفتحًا فجأة، مما جعله يتراجع مترنحًا إلى الوراء، ووقف رجلٌ على عتبة الباب.

كانت الستارة منسدلة؛ لذا كانت الغرفة شبهَ مظلمة، ولم يستطع الدخيل، الذي كان واقفًا بلا حَراك عند المدخل، أن يرى أي شيء سوى الأجساد غير الواضحة للموجودين بداخل الغرفة.

وبينما كان ينتظر انضمَّ إليه ثلاثة آخرون، وتكلم بسرعة بلغة لم يستطع ستارك، الذي كان بارعًا في اللغات، أن يفهمها. فتح أحد رفقائه باب غرفة الطالب وجلب شيئًا أعطاه للمراقب الواقف على عتبة الباب.

ثم دخل الرجل إلى الغرفة بمفرده وأغلق الباب خلفه، ولكنه لم يُغلقه تمامًا؛ لأنه كان يجرُّ خلفه ما بدا وكأنه سلكٌ سميك ومنع هذا الشيء البابَ من أن ينغلق.

استعاد ستارك النطق أخيرًا.

سأل بصوت منخفض: «ماذا تريد؟»

أجاب الدخيل: «أريد بارثولوميو، الذي دلف إلى هذه الغرفة منذ نصف الساعة.»

قال ستارك: «لقد غادر منذ نصف الساعة»، وفي الظلام تحسس بقدمه جسد القتيل؛ إذ كان بحاجة إلى السكين.

قال الغريب ببرود: «كذب، فلم يُغادر هو ولا أنت، يا رودولف ستارك، ولا امرأة جراتس، ولا القاتل فرانسوا.»

قال ستارك باتزان: «السيد يعرف أكثر من اللازم.» واندفع إلى الأمام، ملوحًا بسكينه.

قال الغريب محذرًا: «ابق بعيدًا.» وفي تلك اللحظة اندفع ستارك وفرانسوا الصامت إلى الأمام وضربا.

شلَّ الألم الشديد للصدمة التي قُوبِلا بها حركتهما للحظة. فقد أدَّت الخيوط المرشوشة الخارجة من السلك «المكهرب» الذي كان الرجل يُمسك به أمامه كدرع، إلى اهتزاز السكين في يد ستارك، وسمع فرانسوا يئنُّ وهو يسقط أرضًا.

قال الصوت مجددًا: «أنت أحمق، وأنتِ، يا سيدتي، لا تتحركي، أرجوكِ، أخبريني بما جرى لبارثولوميو.»

ساد صمت.

ثم قالت امرأة جراتس: «لقد مات.»

سمعت الرجل يتحرك.

تابعت بهدوء كافٍ: «لقد كان خائنًا، ولذلك قتلناه. ما الذي ستفعله، يا مَن تقف وكأنك نصبت نفسك قاضيًا؟»

لم يُجِب، وسمعت صوت الحفيف الخافت لأصابعه على الحائط.

قالت دون أن تتحرك: «أنت تنشد الضوء؛ مثلما ننشده جميعًا.» وأضاءت النور.

رآها واقفة بالقرب من جسد الرجل الذي استدرجَته إلى حتفه، هازئة، ومتحدية، مبديةً اكتراثًا غريبًا بخسَّة الفاجعة التي كانت هي المحرِّضةَ عليها.

رأت رجلًا ذا سُمرة في الخامسة والثلاثين من عمره، له عينان غامضتان حادَّتان، وجبهة عريضة، ولحية مشذبة مدببة. كان رجلًا طويلًا، وكانت القوة بادية في كل جزء من أجزاء جسمه الحسن القوام، وبادية في كل ملامح وجهه.

حدقت فيه بوقاحة ولا مبالاة، ولكن أمام هيمنة عينَيه وثباتهما، أرخت جفنَيها.

بدا أن المشاركين الآخرين في الحدث المثير كانوا أتفهَ من أن يكونوا جديرين بالملاحظة. القتيل المسجَّى في وضعية غريبة، والقاتل الغائب عن الوعي عند قدمَيه، وستارك المصاب بدوار والمصعوق والذي كان يزحف بجوار الحائط.

تابعت قائلة: «ها هو الضوء الذي أردته. لا يسهل علينا نحن أعضاءَ المائة الحمر أن نُضيء عتمة اليأس والاستبداد.»

قال مانفريد ببرود: «وفري خطبكِ»، وأذهلتها السخرية في صوته كضربة سوط. فلأول مرة يتورد وجهها وتبرق عيناها غضبًا.

تابع مانفريد قائلًا: «لديكِ مستشارون سيئون. أنتِ يا من تتحدثين عن المستبدين والملوك الفاسدين؛ ماذا أنتِ سوى دمية تقتات على المديح؟ لديكِ هوًى أن يُنظَر إليكِ كمتآمرة، شارلوت كورداي أخرى. وعندما تمتدحين بأنك الأميرة الثائرة، فإن ذلك يُرضي غرورَكِ، ربما أكثر من لقب الأميرة الجميلة الذي يُهللون لكِ به.»

تخير كلماته بعناية.

«إلا أن الرجال، رجالًا كهؤلاء»، وأشار إلى ستارك، «يُفكرون فقط في الأميرة الجميلة، وليس السيدة صاحبة الأفكار الملهِمة؛ ليس الوطنية البطلة الضئيلة صاحبة الكلمات الحماسية، وإنما المرأة التي من لحم ودمٍ، المرأة المحبوبة والفاتنة.»

تكلم بالألمانية، وكانت ثَمة فوارقُ دقيقة في المعاني لا يُمكن ترجمتها بالضبط أو حرفيًّا. كان كلامه ذا مغزًى، ومتزنًا وخاليًا من العاطفة. كان يقصد أن يكون كلامه جارحًا، وأن يكون الجرح غائرًا، وكان يعرف أنه نجح في مسعاه.

رأى الارتفاع والانخفاض المتسارعين لصدرها وهي تُجاهد لكي تستردَّ زمام السيطرة على نفسها، ورأى أيضًا الدم على شفتَيها حيث عضَّتهما بأسنانها الحادة البيضاء.

قالت بانفعال شديد جعل صوتها يرتجف: «سوف ألتقي بك مجددًا. سأبحث عنك وأجدك، وسواءٌ كنتُ أنا الأميرة الثائرةَ أو الأميرة الجميلة التي ستُلحِق بك عقابَك، تأكَّد أني سأضرب بقوة.»

انحنى لها مُحييًا.

وقال بهدوء: «ربما يحدث ذلك؛ أما الآن وأنتِ عاجزة، إذا أردتُ فستُصبحين عاجزة إلى الأبد، الآن إرادتي أن تذهبي.»

وتنحى جانبًا وفتح الباب.

جذبتها الجاذبية التي في عينَيه إلى الأمام نحوه.

قال عندما ترددت: «امضي لحال سبيلكِ.» كانت بلا حول ولا قوة؛ وكان الإذلال الذي تشعر به يُثير جنونها.

وإذ ترددَت عند عتبة الباب، شرعت تقول: «صديقاي ...»

قال بهدوء: «صديقاكِ سيُلاقيان المصير الذي ينتظركِ يومًا ما.»

استدارت شاحبةً منفعلة، مواجهةً إياه.

«أنت! تُهددني! يا لك من رجل شجاع حقًّا إذ تُهدد امرأةً!»

كان يُمكن أن تعضَّ لسانها عندما زَلَّت. كانت كامرأة قد راقت له كرجل! وكان هذا أعظمَ إذلال على الإطلاق.

قال مجددًا، بلباقة ولكن دون تهاون: «امضي لحال سبيلكِ.»

كانت بالكاد على بُعد قدم واحدة منه، واستدارت وواجهته، وتباعدت شفتاها وبدا شيطان الكراهية الأسود في عينيها.

قالت وهي تلهث: «يومًا ما، يومًا ما، سأردُّ لك الصاع!» ثم استدارت بسرعة واختفَت عبر الباب، وانتظر مانفريد حتى تلاشى صوتُ وقع أقدامها وبعد ذلك انحنى نحو ستارك الذي كان واعيًا جزئيًّا وأوقفه على قدمَيه.

الفصل السابع

الحكومة والسيد جيسين

اقتصرتُ في تسجيلي للأحداث التي تلَت معاودة رجال العدالة الأربعة الظهور على تلك الأحداث التي أعرف أنها كانت النتيجة المباشرة لدعاية المائة الحُمر والنشاط المضاد للأربعة رجال العدالة.

لذلك لا أُورد أيَّ إشارة إلى الانفجار الذي وقع في مصنع وولويتش أرسنال للأسلحة والذخيرة، الذي نُسِبت المسئولية عنه إلى المائة الحمر، علمًا بأن الكارثة، على حد علمي، كانت راجعة إلى إهمال عامل. ولا أُشير إلى انفجار الماسورة الرئيسية في شارع أوكسفورد، الذي كان تفسيره أبسط بكثير مما يُمكن أن تجعلك النظريات الغريبة لصحيفة «ميجافون» تتخيَّله. فلم تكن هذه هي المرةَ الأولى التي أدى فيها سلك منصهر وغاز متسرب إلى اضطراب في شارع عام، ولم يكن ثمة وجودٌ للمؤامرة المُحكَمة التي نُسِبَت إلى الأناركية المنظمة.

أظن أن التاريخ الدقيق للغاية لحركة المائة الحمر هو الذي ورد في المقالات العشرة التي قدمها هارولد أشتون للنشر في صحيفة «ذا مورنينج ليدر» تحت عنوان: «أربعون يومًا من الإرهاب»، وبينما أظن أن المؤلف يعجز على نحوٍ متكرر، بسبب انعدام التعاطف لديه مع رجال العدالة الأربعة، عن أن يُقَدِّر تقديرًا كاملًا إصرارَ هذه المجموعة المذهلة من الرجال على بلوغ غايتها، سأنظر دومًا بعين الاعتبار إلى مقالات «أربعين يومًا من الإرهاب» باعتبارها التاريخ القياسي للحركة، ولفشلها.

في نقطة واحدة فقط في التاريخ أجد نفسي معارضًا للسيد أشتون، وهي الصلة بالضبط بين اكتشاف فاجعة شقة كارلبي، والعودة الاستثنائية للسيد جيسين المقيم بالمنزل رقم ٣٧ بشارع بريسلي.

ربما يكون من غير الحكمة مني أن أُشير في مرحلة مبكرة جدًّا كهذه إلى هذه العودة لجيسين؛ لأنه باستثناء النظريات المقدمة في مقالات «أربعين يومًا من الإرهاب»، لست مستعدًّا للخوض في الأدلة التي أبني عليها نظرياتي.

القصة الشائعة هي أنه في صباح يوم ما خرج السيد جيسين من منزله وسأل بائع الحليب المدهوش عن سبب إغفاله لترك تموينه الصباحي. حين تتذكر أن اختفاء «لونج» — ربما يكون أقلَّ إرباكًا أن ندعوَه بالاسم الذي كان معروفًا به في شارع بريسلي — قد أحدث ضجة غير عادية، وأن صورًا لمنزله من الخارج والداخل ظهرت في كل الصحف، وأن خبراء الجريمة في الصحف نشروا أعمدة وأعمدة من النظريات القائمة على تكهنات، وأن المنزل رقم ٣٧ بشارع بريسلي كان لبضعة أسابيع قِبلَة المهووسين، الذين وقفوا بالخارج محدقين في الواجهة المتواضعة في ارتباك لساعات وساعات، يُمكنك أن تتخيل أن تفسير بائع الحليب كان له اللمسة الصحفية نفسها التي من شأنها أن تُعْجِب جمهورًا كانت عقولهم قد رُوِّضت لأجيال على يد كُتَّاب قصص المجلات لاستقبال خاتمة كهذه تمامًا.

الحقيقة أن السيد لونج، عند عودته للحياة، ذهب على الفور إلى وزارة الداخلية وروى قصته لمعاون الوزير. لم يذهب في سيارة أجرة، ولا انتُشِل في حالة من الإعياء كما أوردت خطأً إحدى الصحف، ولكنه وصل مستقلًّا حافلةَ ركاب مكتظَّة حتى الباب، واصطُحِب ليَمثُل في حضرة معاون الوزير على الفور تقريبًا. بعدما روى السيد لونج قصته اقتِيدَ إلى وزير الداخلية نفسِه، وأُرسِل في طلب رئيس الشرطة، وجاء على عجل من سكوتلاند يارد، يُرافقه المفتش فالموث. كل هذا موضَّح في كتاب السيد أشتون.

ونقلًا عن المرجع نفسِه: «لسبب استثنائي ما، يبدو أن لونج، أو جيسين، بواسطة الوثائق التي في حوزته، قد أوضح موقفَه في المسألة على نحو أرضى وزير الداخلية وسلطات الشرطة، وعلاوة على ذلك، حفز بهذه الوثائق الغامضة السيد المبجل، حتى إن السيد ريدجواي، الذي كان رافضًا تمامًا قَبول الاستقالة التي قدمها له جيسين، أعاده إلى منصبه.»

فيما يتعلق بكيفية وصول اثنتين من هذه الوثائق إلى جيسين أو إلى رجال العدالة الأربعة، يتحرى السيد أشتون الحكمة في التزامه بالصمت إزاء ذلك، ولا يحاول حل لغز حيَّر كلًّا من وزارة الخارجية الفرنسية ووزارة الخارجية الروسية.

فقد كانت هاتان الوثيقتان الرسميتان، الممهورة إحداهما بتوقيع الرئيس الفرنسي والأخرى بالتوقيع الممتد للقيصر نيكولاس، يُفترَض أن تكونا مدرَجتَين مع مذكرات رسمية أخرى في سجلات وطنية تحت حراسة مشددة.

أعقب زيارة السيد جيسين لوزارة الداخلية اكتشاف فاجعة شقق جارلبي، ولا يُمكنني أن أفعل ما هو أفضلُ من الاقتباس من صحيفة «التايمز»؛ لأن تلك الصحيفة، غيرةً من ظهور أي أخبار عن شخصية مثيرة في أعمدتها، قللت المعلومات إلى أضيق حدودها. ربما تكون رواية صحيفة «ميجافون» مادة مقروءة أفضل، لكن المساحة المتاحة لي لن تسمح بأن أُدرِجَ في هذا الكتاب الأعمدةَ الثلاثة والثلاثين من المادة المقروءة، وعناوين الأخبار، والصور القلمية، والرسوم التوضيحية البيانية التي قدمت تلك الصحيفة المغامرة من خلالها تفاصيل عن الرعب المروِّع لقرَّائها. وعلى ذلك تقول صحيفة «التايمز»:

> بُعَيد الساعة الواحدة من بعد ظهر أمس وعقب المعلومات الواردة، تمكَّن المفتش فالموث، من إدارة التحقيقات الجنائية، يُرافقه الرقيبان المفتشان بويل ولاولي، من الدخول إلى البناية رقم ٦٩، بمجمع شقق كارلبي، الذي تقطنه الكونتيسة سلينفيتش، وهي سيدة روسية شابة، تتمتَّع باستقلالية مالية. كانت جثث ثلاثة رجال ممددة على الأرض، وأمكن التعرف على هوياتهم وهم:
>
> لودر بارثولوميو، في الثالثة والثلاثين من عمره، عضو سابق في شعبة مشاة خيالة كوندورب.
>
> رودولف ستارك، في الأربعين من عمره، يُعتقَد أنه نمساوي وداعية ثوري بارز.
>
> هنري ديلاي فرانسوا، في السادسة والثلاثين من عمره، مواطن فرنسي، ويُعتقَد أنه كان مشتركًا في العمل الدعائي.
>
> يبدو سبب الوفاة في حالة بارثولوميو واضحًا، ولكن في حالة الرجلَين الآخَرين تُوجَد بعض الشكوك، وسوف تنتظر الشرطة، التي تلتزم موقف التحفظ الصارم، الفحص الطبي قبل الإدلاء بأي تصريح.

من المفهوم أن إحدى السمات غير المعتادة للحادثة تكمن في رسالة عُثِر عليها في الغرفة تحمل إقرارًا، بالنيابة عن تنظيم يُعرف باسم رجال العدالة الأربعة، بالمسئولية الكاملة عن قتل الأجنبيَّين الاثنَين، وثمة سمةٌ أخرى هي، حسبما كتب أحد المراسلين،

الضرر الهيكلي الاستثنائي الواقع على الغرفة نفسها. كما لم يُستدَلَّ على أثر للمستأجرة، الكونتيسة سلينفيتش، حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس.

كان الشاغل الأساسي للمفتش فالموث، بينما كان واقفًا في منتصف الغرفة، التي أُزيلَت منها معظم آثار الفاجعة، هو «الضرر الهيكلي» الذي مرت صحيفة «التايمز» مرورَ الكرام على ذكره.

كان بجوار قدمه فجوة مربعة كبيرة، وأدناه، في الشقة الخالية بالأسفل، كانت توجد كومة من جص، وشرائح خشب، وركام التدمير.

قال المفتش لرفيقه موضحًا: «الأمر الغريب، الذي يُبين مدى دقة وإتقان هؤلاء الرجال، أن أول شيء عثرنا عليه عندما وصلنا إلى هناك كان ورقة نقدية من فئة العشرين جنيهًا مثبتة في الحائط وعليها رسالة موجزة مكتوبة بقلم رصاص تقول إن هذه الورقة النقدية تُرِكَت لتُدفَع لمالك العقار مقابل الضرر الواقع.»

يُمكن إضافة أنه تجاهل، بناءً على الرغبة الصريحة للشاب الذي كان بجواره، كل شكليات الحديث.

أثناء حديثه، وجد نفسه مرة أو مرتَين على وشك أن يقول «سُمُوك»، لكن الشاب، كان في غاية اللطف، وبسرعة شديدة، هدَّأ من روع المحقق ليتغلب على الانزعاج الذي سببه له وصول الزائر الموقر ومعه رسالة من رئيس الشرطة، وأصبح ودودًا.

قال الشاب بهدوء: «بالطبع، لديَّ اهتمام بكل هذا. لقد قرر هؤلاء الناس، لسبب ما، أنني لست مؤهلًا لأن أعيش على وجه الأرض.»

«ماذا فعلت للمائة الحمر يا سيدي؟»

ضحك الشاب.

وأضاف بابتسامة مرحة: «لا شيء. على النقيض، لقد ساعدتهم.»

تذكَّر المحقق أن هذا الأمير، وريث عرش الإسكوريال، عُرِف عنه غرابة الأطوار.

على نحو مفاجئ كان مربكًا، استدار الأمير وعلى شفتيه ابتسامة.

«أنت تفكر بشأن سمعتي السيئة، أليس كذلك؟»

نفى السيد فالموث بإحراج قائلًا: «لا، لا! أنا ...»

قال الآخر بضحكة خفيفة: «أوه، نعم، لقد فعلت أمورًا كثيرًا. إنه شيء يسري في الدماء، فابن عمي ذائع الصيت.»

قال فالموث بطريقة مثيرة للإعجاب: «أؤكد لسموك أن أفكاري لم تكن، أفكارًا بشأنك، ثمة قصة تقول إنك منخرط في الاشتراكية، ولكن ذلك، بالطبع ...»

أكمل الأمير بهدوء: «صحيح تمامًا.» ووجه انتباهه إلى الفجوة في أرضية الغرفة.

سأله: «هل كوَّنت أي افتراض؟»

أومأ المحقق برأسه.

«إنه أكثر من افتراض، إنه معلومة، تعلم أننا رأينا جيسين، وخيوط القصة كلها في متناول أيدينا.»

«ماذا ستفعلون؟»

قال المحقق بتبلُّد: «لا شيء. سنجعل التحقيق في سرية إلى أن نتمكَّن من وضع الأغلال في يد رجال العدالة الأربعة.»

«وطريقة القتل؟»

أجاب فالموث بطريقة جازمة: «يجب أن يبقى ذلك في طيِّ الكتمان.» قد تقدم هذه المحادثة فكرة عن المسلك غير المسبوق للشرطة فيما يتعلق بالتحقيق اللاحق.

في محكمة الطب الشرعي كان هناك ثلاثة من رجال الصحافة ونحو خمسين من عامة الناس. دون رغبة مني بأيِّ طريقة في أن أُلقي بظلال من الشك على أطهر قوة شرطية في العالم، يُمكنني فقط أن أذكر أن هيئة المحلَّفين كانت منضبطة على نحو ملحوظ، حتى إن عامة الناس وجدوا أن مبنى المحكمة كان مكتظًّا برجال بأكتاف عريضة حتى إنهم لم يتمكنوا من الدخول. أما الصحافة، فقد أدى التعميم السري دورَه، وكان مندوبو الصحافة الثلاثة الذين شغلوا مكتب المراسلين في المحكمة حريصين على اتباع التعليمات.

دامت الإجراءات القضائية وقتًا قصيرًا جدًّا، وسُجِّل الحكم «... شخص أو أشخاص غير معروفين»، وأُضيفَ لغز لندني جديد (اقتُبِس من صحيفة «ذا إيفنينج نيوز») إلى القائمة المقلقة بالفعل والضخمة من الجرائم التي أفلت مرتكبوها من العقاب.

كان تشارلز جارنيت أحد الصحفيين الثلاثة الذين حضروا التحقيق، وبعد أن انتهى كل شيء واجه فالموث.

قال بمشاكسة: «اسمع يا فالموث، ما هذه الفوضى؟» هز فالموث، الذي لديه من الأسباب ما يجعله يعرف الرجل ويخشاه إلى حد ما، رأسه بغموض.

قال تشارلز بوقاحة: «أوه، هراء! لا تكن غامضًا بهذه الطريقة المقرفة، لماذا لا يُسمَح لنا أن نقول إن هؤلاء الرجال ماتوا؟»

سأله المفتش: «هل رأيت جيسين؟»

قال تشارلز بمرارة: «رأيته، وبعد كل ما فعلته من أجل ذلك الرجل؛ بعد أن وضعت قدمه الضخمة على درجات التحضر.»

سأله فالموث ببراءة: «ألن يتكلم؟»

قال تشارلز بحزن: «لقد كان كَتومًا مثل الغسالة الداخلية لمضخة تفريغ.»

كان المفتش يتأمل فأصدر همهمة. إن عاجلًا أو آجلًا لا بد أن يحدث الاتصال مع تشارلز، وكان هو الرجل الوحيد الذي من المرجح أن يكشف النقاب عن سر جيسين. من الأفضل أن يعرف الصحفي الآن.

قال فالموث بهدوء: «لو أنني مكانك، ما كنتُ سأزعج جيسين؛ أنت تعرف طبيعته، ومدى خدمته للحكومة. تعالَ معي.»

لم ينطق ببِنْت شَفة ردًّا على الأسئلة التي طرحها تشارلز حتى مرا عبر البوابات المبهرجة لمجمع شقق كارلبي واستقر بهما مصعد عند باب الشقة.

فتح فالموث الباب بمِفتاح، ودلف تشارلز إلى الشقة في أعقابه.

رأى الفجوة في أرضية الغرفة.

قال: «هذا لم يُذكَر في التحقيق، ولكن ما علاقة هذا بجيسين؟»

رفع رأسه ونظر إلى المفتش في حيرة، ثم فجأة أدرك الأمر وصفَّر.

قال: «حسنًا، أنا ...» ثم أضاف بهدوء: «ولكن ما رأي الحكومة في هذا؟»

قال فالموث بأفضلِ ما بوُسعه من طريقة رسميَّة، وهو يُملِّس في نفس الوقت على وبر قبعته: «الحكومة تعتبر الملابسات غير عادية، ولكنها قبلت الموقف بفلسفة عظيمة.»

في تلك الليلة عاود السيد لونج (أو جيسين) الظهور في «الرابطة» وكأن شيئًا لم يحدث بالمرة، وخاطب مستمعيه مدة نصف الساعة حول موضوع «هل يُمكن أن يكون لصوص المنازل حراسًا جيدين؟»

الفصل الثامن

حادث عارض أثناء القتال

لن نعرف أبدًا من أي مكان سري في المدينة أعادت امرأة جراتس تنظيم قواتها؛ الأمر الذي أعاد إليها قوة الهدف وطاقتها غير المحدودة التي يُمكننا توقعها. بموت ستارك صارت افتراضيًّا وفعليًّا زعيمة منظمة المائة الحمر، ومن كل حدب وصوب في أوروبا أتت تعزيزات من الرجال والمال لتقوية قبضتها وإعادة توطيد المكانة المهتزة لأقوى تنظيم عرفته الأناركية على الإطلاق.

كانت بريطانيا العظمى دومًا منيعة أمام العمليات النشطة للأناركيين. كانت ملاذَ الثوريِّين لقرون، وكانت الأناركية قد تردَّدت في الإضرار بأمن اللاجئين بمتابعة دعايتها على التراب الوطني البريطاني. ومن المعروف أن متطرفي الحركة كانوا غاضبين في ظل القيد المفروض، وعندما أعلنت امرأة جراتس الحرب على إنجلترا جهرًا، لاقت استحسانًا كبيرًا.

تبع ذلك ما يُمكن أن يكون أكثرَ النزاعات استثنائيةً والتي لم يشهد العالم لها مثيلًا من قبل. تقاتل كِيانان قويان، كلاهما خارج نطاق القانون، بسرعة وبلا رحمة، لا يطلبان الرأفة ولا يمنحانها. والغريب في الأمر كله أن أحدًا لم يرَ عملاء أيٍّ من الطرَفَين المتقاتلَين. كان الأمر كما لو أن قوتَين روحيتَين كانتا منخرطتَين في معركة طاحنة. كانت الشرطة شبه عاجزة. استُؤنِفَت المعركةُ ضد منظمة المائة الحمر، من جانب رجال العدالة الأربعة بمفردهم تقريبًا، أو لنمنحهم اللقبَ الذي وقَّعوا به بيانهم الشهير، «مجلس العدالة.»

منذ أيام الغارات الفينيانية، لم تعِش لندن مطلقًا أجواء الرعب التي صنعتها منظمة المائة الحمر. لم يمرَّ يوم بدون تحضيرات لهجوم اكتُشِف أمره، وكان أكثر تلك الهجمات فظاعة محاولةَ الهجوم على مترو أنفاق لندن. إذا كنتُ أُشير إليها بأنها «محاولات»، وإذا

كان تَكْرار تلك الكلمة يضجر القارئ، فذلك لأنه، بفضل اليقظة الفائقة لمجلس العدالة، انتهى أمرها.

قال وزير الداخلية بفظاظة في اجتماع لقادة الشرطة: «لا يُمكن لأمور من هذا القبيل أن تستمر. لدينا هنا، باعتراف الجميع، أفضل قوة شرطية في العالم، ولا بد بالضرورة أن نكون ملتزمين أمام الرجال الذين توجد مذكرات بشأنهم على خلفية اتهامٍ بالقتل العمد!»

تعرَّض رئيس الشرطة لمضايقات بما فيه الكفاية، وكان يميل إلى الاستياء من النقد الصادر من الوزير.

قال باقتضاب: «لقد فعلنا كل ما يُمكن فعله، يا سيدي. إن كنت تعتقد أن استقالتي ستُساعدك في الخروج من المأزق.»

احتج وزير الداخلية بأفضلِ ما يملك من سلوك غير برلماني: «بحق السماء، لا تكن أحمقَ. ألا ترى.»

قال رئيس الشرطة بعناد: «أرى أنه لم يقع ضرر حتى الآن»؛ ثم فاض به الكيل:

«اسمع، يا سيد! في أحيان كثيرة جدًّا يتعين على رجالنا توظيف شخصيات أسوأ بكثير من رجال العدالة الأربعة. وإذا لم نُوظفهم فإننا نستغلهم. لصوص صغار حقراء، يدعونهم «مخبرين»، سجناء سابقون مسنُّون، ولصوص منازل، وفي مرات قليلة أناس أسوأ. نحن موجودون لحماية العامة؛ وما دام العامة محميِّين، لا يستطيع أحدٌ أن ...»

«ولكن لستم أنتم من يحمي العامة، فأنتم تتلقَّون معلوماتكم من ...»

«من مجلس العدالة، هذا صحيح؛ ولكن لا يُهم مصدرها. اسمع، يا سيد.»

كان جادًّا جدًّا وأكَّد ملاحظاته بطَرْقات خفيفة على المكتب.

قال بجدية: «أخرج أمير الإسكوريال من البلاد. لديَّ معلومات تُفيد بأن منظمة المائة الحمر تُريد سفك دمه. لا، لم أتلقَّ تحذيرًا من رجال العدالة الأربعة، وذلك هو الجانب الغريب في الأمر. وصلتني المعلومة مباشرةً من رجل يبيع لي المعلومات. سأراه الليلة إذا لم يقتلوه.»

«ولكن الأمير ضيفنا.»

قال رئيس الشرطة العملي وغير العاطفي: «لقد مضى على وجوده وقتٌ أطول من اللازم. دعه يعود إلى إسبانيا، سيتزوج في غضون شهر؛ دعه يعود إلى وطنه ويشتري جهاز العروس أو أيًّا كان ما يشتريه.»

«هل هذا اعترافٌ منك بأنك لا تستطيع حمايته؟»

بدا رئيس الشرطة غاضبًا.

«بوسعي حماية طفل في السادسة من عمره أو سيد رزين في الستين من عمره، ولكن لا يُمكنني أن أكون مسئولًا عن شاب يُصِر على أن يرى لندن بدون حراسة، ويقود السيارة في جولات منفردة، ويرفض أن يُعطينا أي معلومات مسبقة عن خططه لليوم، أو إذا فعل، لا يلتزم بتلك الخطط!»

كان الوزير يتمشى ببطء في الشقة مُطأطئ الرأس مستغرقًا في التفكير.

بعد قليل قال: «فيما يتعلق بأمير الإسكوريال، فقد نُقِلَت النصيحة بالفعل إلى سموه — من السلطة العليا — ليُغادر في أقرب ميعاد ممكن. الليلة، بالتأكيد، هي ليلته الأخيرة في لندن.»

أبدى رئيس الشرطة شعورًا مفرطًا بالارتياح.

قال وهو ينهض: «سيذهب إلى قاعة الأوديتوريوم الليلة.» تحدث بقليل من التأسِّي، وبالفعل كانت قاعة الأوديتوريوم، مع أنها قاعة موسيقية فاخرة جدًّا، كانت تتمتع بسمعة متواضعة. «سأضع اثنَي عشرَ رجلًا في المنزل، وسأجعل سيارته تنتظر أمام الباب الخلفي عند نهاية العرض.»

في تلك الليلة وصل سموه في الساعة الثامنة بالضبط ووقف يتحدث بود مع المدير الحاسر الرأس في المدخل. ثم مضى وحده إلى مقصورته وجلس في ظل الستارة المخملية الحمراء.

في الثامنة بالضبط وصل هناك سيدان آخران، يرتديان أيضًا ملابسَ السهرة. كان أحدهما هو أنطونيو سيلليني والآخر هو كارل أولمانز. كان كلاهما شابًّا، وقبل أن يترجلا من السيارة أنهيا ترتيبهما.

«ستشغل المقصورة التي في الجهة المقابلة، ولكني سأُحاول دخول المقصورة. إذا نجحت، سيكون الأمر قد انتهى. السكين هي أفضل وسيلة»، كان ثمة فخر في نبرة صوت الإيطالي.

«إذا لم أتمكَّن من الوصول إليه فسيكون الشرف من نصيبك.» كان يتسم بطريقة الشباب اللاتينيين المتكلفة. غمغم الرجل الآخر. وأجاب بفرنسية سيئة.

قال: «ذات مرة أَصَبت بيضة من بين إصبعَين، هكذا.»

دخل كلٌّ منهما إلى القاعة بمفرده.

في مكتب المدير، خفف المفتش فالموث من ملل الانتظار بقراءة الإعلانات في صحيفة مسائية.

جاءه المدير يحمل رسالة بعدم ازعاج سموه في المقصورة «أ» تحت أي ظرف من الظروف حتى انتهاء العرض.

في ذلك الوقت مضى السيد سيلليني بحذر إلى المقصورة «أ». وجد الطريق خاليًا، وأدار المقبض برفق، ودخل بسرعة إلى داخل المقصورة المظلمة.

بعد ذلك بعشرين دقيقة وقف فالموث في خلفية مقاعد الملابس الرسمية يوجِّه التعليمات إلى معاون له.

«ضع رجلَين عند الباب الخلفي للقاعة، يا إلهي!»

فوق من صوت الموسيقى الناعمة، ومن همهمة الأصوات، رَنَّ صوت طلقة وصرخت امرأة. ومن المقصورة المقابلة لمقصورة الأمير تصاعدت دوامة رفيعة من الدخان.

كان كارل أولمانز، إذ سئم من الانتظار، قد أطلق النار على الجسد الساكن الجالس في ظل الستارة. ثم سار بهدوء خارجًا من المقصورة لتتلقفه أذرع مفتشَين متوترَين.

صاح فالموث وهو يجري: «طبيب!» كان باب المقصورة «أ» موصدًا، لكنه فتحه عَنْوة.

كان يوجد رجل راقد على أرضية المقصورة ساكنًا تمامًا ومتيبسًا على نحو غريب.

قال المفتش: «عجبًا! ما ...» كان القتيل مكبَّل اليدَين والقدمَين.

كان ثمة حشدٌ بالفعل عند باب المقصورة، وسمع صوتًا آمرًا يطلب الدخول.

نظر خلفه لتلتقيَ عيناه بعينَي رئيس الشرطة.

قال بمرارة: «لقد قتلوه، يا سيدي.»

سأله رئيس الشرطة متحيرًا: «قتلوا من؟»

«صاحب السمو.»

ارتفع حاجبا رئيس الشرطة في ذهول تام وقال: «صاحب السمو! عجبًا! لقد غادر الأمير محطة قطارات تشارينج كروس متجهًا إلى القارة منذ نصف الساعة!»

شهق المفتش مذهولًا.

«إذن مَن هذا بحق الرب؟»

كان إم مينشيكوف، الذي كان قد دخل مع رئيس الشرطة، هو من أجاب.

قال: «أنطونيو سيلليني، أناركي من ميلانو.»

تزوج كارلوس فرديناند بوربون، أمير الإسكوريال، ودوق بودا جراتس، ووريث ثلاثة عروش، وشعَر أبناء عمومته النبلاء الكثيرون المتفرقون في سائر أنحاء أوروبا بارتياحٍ عميق.

أمير ذو رُؤًى تقدمية حقًّا، ومؤمن بالمثل العليا، وبمخططات مثالية لإعادة تشكيل البشرية، وفيما يتعلق بالجانب العملي الاعتيادي للحياة، كان قائد سيارات متهور، وفارسًا جريئًا على نحو لا يُحتمَل، وتُسيطر عليه لا مبالاة بالرأي العام التي هي عتاد الحمقى والعظماء على السواء، وكانت البلاطات الملكية في سائر أنحاء أوروبا تتطلع إلى زواجه باعتباره إنجازًا عالميًّا. قال صاحب الجلالة إمبراطور أوروبا الوسطى لمستشاره الأشيب:

«يا إلهي، أتفهم، يا فون هيدليتز؟ في كل كنيسة.»

قال المستشار، وهو يهز رأسه بتفكر: «إنه مصدر ارتياح كبير.»

قال الإمبراطور: «ارتياح!» ومد جسمه كما لو كان الارتياح جسديًّا، وأضاف: «ذلك الشاب مدين لي بسنتين من الحياة. هل سمعت بمقالة لندن؟»

كان المستشار قد سمع بها — في الواقع، سمع بها ثلاث مرات أو أربعًا — لكنه كان مستشارًا مهذبًا وأصغى بانتباه. كان جلالته يمتلك حقًّا مَلَكة رواية القصص، وأسهب في سرد المقدمة.

«... لو كنت سأُصدق سموه، فإنه كان جالسًا بهدوء في المقصورة عندما دخل الإيطالي. رأى السكين في يده وانتصب جزئيًّا ليتعامل مع الدخيل. فجأة، ومن مكان غير محدد، هب ثلاثة رجال، أسقطوا القاتل على الأرض مكبلًا ومكمَّم الفم. يُمكن أن يخطر على بالك أن رجلَنا كارلوس فرديناند قد صرخ! لكنه ليس هو من يفعل ذلك! لقد جلس ساكنًا، مُقَسِّمًا انتباهه بين خشبة المسرح والرجل المسجَّى أرضًا وقائد هذه المجموعة الغامضة من المنقذين.»

أضاف المستشار: «رجال العدالة الأربعة!»

صحح الإمبراطور الراوي للقصة: «ثلاثة، حسبما أستطيع استخلاصه. حسنًا، يبدو أن هذا القائد، بهدوء منطقي جدًّا، وبطريقة الأمر الواقع، قد اقترح أنه يتعين على الأمير أن يُغادر بهدوء؛ إذ كانت سيارته عند الباب الخلفي، وكان صالونًا قد حُجِز له في قطار مغادر من محطة قطارات تشارينج كروس، وقُمرة في سفينة مُغادِرة من ميناء دوفر، وقطار خاص في كاليه.»

كان لدى جلالته سمةٌ غريبة تتمثَّل في تدليكه لرُكبَته عندما يسرُّه أي شيء، وهذا ما فعله حينئذٍ.

«أطاع كارل كالطفل، وهي ما تبدو النقطة الغريبة على نحو لافت بشأن الوقائع كلها، ورُبِط الأناركي المقبوض عليه وكُبِّل وأُجْلِس على الكرسي، وتُرِك لأفكاره غير السارة.»

قال المستشار: «وقُتِل.»

صحَّح الإمبراطور: «لا، لم يُقْتَل؛ فجانبٌ من القصة التي أرويها لك يرجع إليه؛ إذ أخبر به الشرطة في المستشفى، لا، لا، لم يُقْتَل؛ فلم يكن صديقه راميًا ماهرًا كما ظن.»

الفصل التاسع

رجال العدالة الأربعة في مواجهة المائة الحمر

رأى بعض العمال، أثناء عودتهم إلى منازلهم في إحدى الأمسيات من طريق مختصر عبر حقل يبعد ميلَين عن كاتفورد، رجلًا معلقًا مشنوقًا من شجرة.

جرَوا عبر الحقل ووجدوا سيدًا يرتدي ملابسَ عصرية وذا مظهر أجنبي. قطع أحدُ العمال الحبل بسكينه، لكن الرجل كان قد مات بالفعل عندما قطعوا الحبل وأنزلوه. تحت الشجرة كانت توجد حقيبة سوداء، كان أحدٌ ما قد ثبت عليها بطاقة تحمل التحذير «ممنوع اللمس. هذه الحقيبة تحتوي على متفجرات. أبلغ الشرطة.» غير أن الأمر الأجدر بالملاحظة كان بطاقة الأمتعة المربوطة في طيَّة صدر معطف الرجل. كان مكتوبًا عليها ما نصه: «هذا هو فرانز كيتسينجر، مُدانٌ في براغ في عام ١٩٠٤، بتهمة إلقاء قنبلة؛ هرب من السجن في ١٧ مارس من عام ١٩٠٥، وكان أحدَ ثلاثة رجال مسئولين عن محاولة الاعتداء على جسر البرج اليوم. أُعْدِم بأمر من مجلس العدالة.»

قال رئيس الشرطة عندما نقلوا إليه الخبر: «إنه اعتراف مهين، ولكن وجود هؤلاء الرجال يُزيل حِملًا ثقيلًا عن ذهني.»

لكن منظمة المائة الحمر كانت مستمرةً بصلابة.

في تلك الليلة، تَمَشَّى رجل، يُدخن سيجارًا، على غير هدًى مارًّا بالشرطي الواقف عند نقطة خدمة عند ناصية حدائق كنسينجتون بارك، وسار على نحو عادي داخلًا إلى ميدان لادبروك. تابع سيره المتمهل، وسلَك منعطفًا، عابرًا طريقًا، ووصل إلى حيث تُوجَد حديقة كبيرة أمام صفٍّ مزدوج من منازل الطبقة المتوسطة. كانت خلفية هذه المنازل تُطِل على

الميدان. تلفَّت حوله، ولما رأى أن المنطقة خالية، تسلق الحواجز الحديدية وهبط في ساحة الألعاب الترفيهية الكبيرة، ممسكًا بحرص شديد بشيء برَز من جيبه.

ألقى نظرة متمهلة على المنازل قبل أن يختار الضحية. كانت ستائرُ هذا المنزل بالتحديد مرفوعة وكانت النوافذ الفرنسية لغرفة الطعام مفتوحة، واستطاع أن يرى مجموعة ضاحكة من الشباب حول المائدة. كان حفل عيد ميلاد أو شيء من هذا القبيل يجري؛ لأنه كان ثمة استعراض كبير لقبَّعات بارثية وقبعات ورقية واقية من الشمس.

كان من الواضح أن الرجل كان راضيًا عن احتمالات حدوث فاجعة، وخطا خطوة مقتربًا.

أحاطت به ذراعان قويتان، بدَت عضلاتهما مثل حبال من الفولاذ.

همس صوت في أذنه: «ليس هكذا، يا صديقي.»

ظهرت أسنان الرجل في ابتسامة مرعبة.

تلقَّى الرقيب المناوب في مخفر نوتينج هيل رسالة قصيرة سلمها له أحد أطفال الشوارع القذرين، الذي نال سمعة سيئة لأيام بعدها.

قال الصبي: «طلب مني أحدُ السادة أن أُحضر لك هذه.»

نظر الرقيب إلى الصبي الصغير بصرامة وسأله عما إذا كان قد غسل وجهه من قبل. ثم قرأ الرسالة:

> الرجل الثاني من الرجال الثلاثة المعنيِّين بمحاولة تفجير جسر البرج سيكون موجودًا في حديقة ميدهام كريسينت، تحت شجيرات الغار، أمام البناية رقم ٧٢.

كانت ممهورة بتوقيع «مجلس العدالة.»

كان رئيس الشرطة جالسًا يتناول قهوته في فندق الريتز، عندما أبلغوه بالخبر. كان فالموث ضيفًا يُظهِر الاحترام في مسلكه، ومرَّر رئيس الشرطة الرسالة القصيرة إليه دون تعليق.

قال فالموث: «هذا سيُنهي على منظمة المائة الحمر. فهؤلاء الناس يقاتلونهم بأسلحتهم؛ الاغتيال بالاغتيال، والإرهاب بالإرهاب. ما دورنا في هذا؟»

قال رئيس الشرطة، متخيرًا كلماته بلطف كبير: «دورنا يأتي في النهاية، بأن نُزيل الفوضى، وننسب لأنفسنا أي فضلات باقية من الفضل من شأنها أن ...» ثم توقف عن الكلام وهز رأسه. وشرع يقول: «آمُل، يُؤسفني ...»

قال المحقق بإخلاص: «وأنا أيضًا»، لأنه عرَف أن رئيسه كان منشغلًا بالسلامة القصوى للرجال الذين كان القبض عليهم مسئوليته هو في الواقع. قطَّب رئيس الشرطة حاجبَيه في تفكير.

قال متأملًا: «اثنان. كيف بحق السماء يعرف رجال العدالة الأربعة العدد في هذه، وكيف تتبَّعوهم، ومن الثالث؟ بحق السماء! يُمكن للمرء أن يستمر في طرح الأسئلة طوال الليلة!»

في مرحلة ما ربما يكون رئيس الشرطة قد أُبلِغ في وقت سابق في المساء، أما هو فلم يكن قد أُبلِغ حتى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي. كان الرجل الثالث هو فون دونوب. من الواضح أنه خرج لتمضية اليوم، غافلًا عن مصير رفاقه الإرهابيين.

بدأ الحشد أمام باب أحد المسارح في سلسلة من الأفكار المتلاحقة، لكنه أبى الإفصاح عن تطلعاته. كان الأمر علنيًّا أكثر من اللازم، وفرصة الهروب كانت معدومة. لم يفقد هذا الجمهور البريطاني صوابه بسرعة؛ فقد رفضوا أن تُربِكَهم الضوضاء والدخان، وجسد يتلوى هنا وهناك. لم يكن فون دونوب من دعاة مدرسة مجد الموت. كان يرغب بشدة في المجد، لكن كلما كانت المخاطرة أقل، كان المجد أعظم. كان هذا هو قانونه.

وقف برهة خارج فندق الريتز. كانت مجموعة ممن كانوا يتناولون طعام العشاء تُغادر، وكانت السيارات تنطلق لتحمل هؤلاء الأثرياء الملعونين ذوي النفوذ إلى المسرح. أبدى الأناركي اهتمامًا بسيد ذي طلة عسكرية وشارب رمادي، ويُرافقه رجل هادئ، متيقظ، حليق الوجه. تبادل النظرات مع الرجل العسكري.

تساءل رئيس الشرطة وهو يترجل من سيارة الأجرة: «بحق الشيطان من كان ذلك الرجل؟ يبدو أنني أعرف هذا الوجه.»

قال فالموث: «لقد رأيته من قبل. لن أذهب معك يا سيدي. لديَّ عمل يتعين عليَّ أن أقوم به في هذا الأنحاء.»

فيما بعد لم يتمكَّن فون دونوب من الاستمتاع بتمشيته في عزلة، إذ «اقتفى أثره» رجل غير معروف له وتبعه طوال الأمسية. ومع مرور الوقت، انضم إلى ذلك الرجل آخر، وعند الساعة الحادية عشرة صاروا ثلاثة، وعند الساعة الثانية عشرة إلا الربع، عندما كان فون دونوب قد حدد مكان عمله البطولي ونطاقه، انعطف من شارع بارك لين إلى شارع بروك ستريت، وأزعجته رؤيته لعدد كبير من الناس في الجوار. لكنه لم يشكَّ في شيء. لم يشك بشأن الرجل الذي كان يتجول ليلًا متسكعًا على الرصيف ومتجهًا بناظِرَيه

إلى أسفل، يُفتش في المزراب عن عُقب سيجار شارد؛ ولا شكَّ بشأن الرجلَين اللذَين كانا يتبادلان الحديث بصوت مرتفع ويرتديان بذلتَين من قماش مربع بنفسجي واللذَين كانا يتجادلان أثناء سيرهما بشأن المزايا النسبية لخيول سباق الديربي المفضَّلة؛ ولا شك بشأن الحاجب الذي كان يمشي متثاقلًا عائدًا إلى بيته يحمل حقيبته في يده وغليونًا في فمه؛ ولا شك بشأن الرجل حليق الوجه الذي كان يرتدي ملابس سهرة.

كان وزير الداخلية يمتلك منزلًا في ساحة بيركلي. كان فون دونوب يعرف الرقم تمام المعرفة. أبطأ الخطى حتى يسمح للرجل في ملابس السهرة أن يتجاوزه. كان يتعيَّن عليه قَبول مخاطرة وجود سيارة الأجرة التي تسير ببطء على بعد خمسين ياردة منه. كانت هذه السيارة تُلاحقه باستمرار طيلةَ الساعة الماضية، لكنه لم يكن يعرف ذلك.

أدخل يده في جيب معطفه الطويل وأخرج الآلة. كانت واحدةً من روائع كالفيري وكانت، نوعًا ما، تجريبية؛ كان الزعيم قد أخبره بهذا محذرًا إياه في رسالة حملت ختم «ريجا». تحسس بإبهامه بحثًا عن مفتاح صغير «يشغل» الآلة وضغط عليه.

ثم دخل منسلًّا عبر مدخل البناية رقم ١٩٦ ووضع القنبلة. فعل هذا في ثانية، وعلى حد علمه لم يكن أي رجل قد رآه يُغادر الممر وعاد إلى رصيف المشاة بسرعة كبيرة. لكن ما إن خطا متراجعًا، حتى سمع صيحة وانطلق رجلٌ عبر الطريق، داعيًا إياه إلى الاستسلام. ومن اليسار جاء رجلان يُهرولان، ورأى الرجل الذي كان يرتدي ملابس السهرة يُطلق صافرة.

لقد قُبِض عليه؛ كان يعرف هذا. كانت توجد فرصة للهرب؛ فقد كانت الجهة الأخرى من الشارع خالية، فاستدار وأطلق ساقَيه للريح. كان بوسعه أن يسمع وقع أقدام مطارديه من خلفه. التقطت أذناه، اللتان كانتا متأهبتَين لكل مرحلة من المطاردة، صوت قدمَين تتفقدان سلالم البناية رقم ١٩٦ وتنزلان عليها بسرعة. ألقى نظرة سريعة خلفه. كانوا يقتربون منه، واستدار فجأة وأطلق النار ثلاث مرات. سقط أحدهم؛ كان ذلك مقدار ما رآه. ثم ظهر أمامه من الظلال شرطي طويل القامة وأمسك به من خصره.

صاح فالموث، وهو يجري نحوهما: «أمسك بذلك الرجل!» أقبل المتجول الليلي وهو يزفر بقوة، وكان شخصًا رثَّ الثياب لكنه كان ماهرًا، وكَبَّل يدَي فون دونوب على الفور.

كان هو مَن لاحظ عرَج المقبوض عليه.

قال: «مرحبًا!» ثم رفع يده وقال: «سلِّطوا ضوءًا هنا.»

كان يوجد ستة من رجال الشرطة وحشد لا يُمكن تفادي وجوده في المكان نفسِه حينئذٍ، وتركزت أشعة فوانيس عين الثور على يد المفتش. كانت ملطخة بالدماء. أمسك فالموث بفانوس وسلط ضوءه على وجه الرجل.

لم يكن ثمة حاجةٌ إلى إمعان النظر أكثر من ذلك. لقد مات؛ مات وعلى جثته البطاقة المحتومة المثبتة على مقبض السكين الذي قتله.

أطلق فالموث سبة.

«هذا لا يُصَدَّق! مستحيل! لقد كان يجري حتى أمسك الشرطي به، ولم يُفلت من أيدينا! أين الشرطي الذي أمسك به؟»

لم يُجِب أحد، من المؤكد أنه لم يكن الشرطي الطويل القامة، الذي كان في تلك اللحظة يركب سيارة متجهةً شرقًا، ويُغير ملابسه بسرعة ويلبس ثيابًا مسائية تقليدية لسيد إنجليزي.

الفصل العاشر

المحاكمة

إن فهم ما يدور في عقل امرأة جراتس ليس مهمة سهلة، كما أنها مهمة لا يصح القيام بها باستخفاف. عندما تتذكر البداية الغامضة لتلك الطفلة العارية الساقَين وهي تستوعب الكلام الثوري في المطبخ الترانسلفاني، وتُطور عقلها وفقًا لخطوط غير تقليدية؛ وتتذكر، أيضًا، أنه في مرحلة مبكرة من حياتها واجهت المشكلات البالغة للحياة والموت في أسوأ صورها، وأن قَدَر الأشياء قد شُوِّه تشويهًا صارخًا على يد معلميها، قد تصل إلى مرحلة يتردد فيها حكمك المتذبذب بين اللوم والشفقة.

قد أُصدق أن قوة التأمل لم يكن لها مكانٌ حقيقي في عقلها، وإلا فكيف يُمكننا تفسير موقفها من الرجل الذي تحدَّته وقَبول فورات انفعالاتها التي دعت فيها إلى موته، وإلى عقابه عقابًا شديدًا، والتي، أيضًا، سمحت أثناءها لنفسها برفاهية نادرة من الكلام بلا قيود؟ كيف يُمكننا قَبول نوبات الغضب هذه مع حقيقة أن صوت هذا الرجل شغل أفكارها ليلًا ونهارًا، وأن ذكرى عينَي هذا الرجل من خلال قناعه تبعتها في كل حركاتها، حتى تحولت صورته إلى هوس؟

قد يكون الأمر أنه ليس لي دراية بالنساء وبطرقهن (لا توجد عجرفة خفية في الشك الذي أُعَبِّر عنه) وأن تقلُّبها كان شيئًا عامًّا وشائعًا بين بنات جنسها. يجب عدم تخيُّل أنها ادخرت جهدًا أو مالًا للقضاء على أعدائها، وأعداء منظمة المائة الحمر. لقد وصفتهم، على نحو جيد قدر استطاعتها، بعد لقائها الأول، ووُزِّعت الرسوم التقريبية التي رُسِمَت لهم حسب تعليماتها بواسطة قادة منظمة المائة الحمر.

وهي جالسة بالقرب من نافذة منزلها، استغرقت في التفكير، بينما الصوت الذي لا يتوقف لحركة السير في الشارع بالأسفل يجعل الخدر يسري في جسدها، ويجعلها شبه نائمة.

أيقظها صوت إدارة مقبض الباب من أحلامها.

كان القادم هو شميدت، شميدت الرهيب، يتصبَّب عرقًا ومنفعل للغاية. كان وجهه المستدير الغليظ يشعُّ انفعالًا، وبالكاد يستطيع أن يُخْرِج صوته لينبئها بالخبر.

صاح بسعادة، وفرقع بأصابعه، قائلًا: «لقد أمسكنا به! لقد أمسكنا به! أوه! الخبر السار! أنا أول من يُبلغكِ به! لم يُبلغكِ أحدٌ بذلك، أليس كذلك، يا صديقتي الصغيرة؟ لقد هُرِعتُ واستقللتُ سيارة أجرة.»

سألته: «قبضتم على من؟»

قال: «على الرجل، أحد الرجال الذين قتلوا ستارك وفرانسوا، و...»

قالت بخشونة: «أي، أي رجل؟»

تحسس جيبه وسحب صورة تقريبية غير ملونة.

قالت: «أوه!» لم يكن من الممكن أن يكون هو الرجل الذي كانت قد تحدثته، فسألت صاخبةً: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا هذا الرجل فقط؟ لماذا ليس الآخرين؟ لماذا ليس الزعيم؟ هل أمسكوا به وفقدوه؟»

ظهر الكدر والذهول على وجه شميدت المستدير. كادت خيبة أمله أن تكون مضحكة.

قال، مكتئبًا ومتحيرًا: «لكن، أيتها الأم الصغيرة، هذا واحد منهم، لم نكن نأمُل حتى في الإمساك بواحد منهم و...»

هدأت عاصفة غضبها.

وقالت بضجر: «أجل، أجل، واحد، حتى واحد هو أمر جيد. سيتعلمون أن المائة الحمر ما زالوا يستطيعون أن يضربوا، هذا الزعيم سيعرف، هذا الرجل سيموت»، وقالت وهي تنظر إلى شميدت: «ميتة جديرة بأهميته. أخبرني كيف أمسكوا به.»

قال شميدت المتحمس: «كان السبب هو الصورة، الصورة التي كنتِ قد رسمتها. أحد رفاقنا ظن أنه تعرف عليه وتبعه إلى منزله.»

قالت: «سوف يُحاكَم، الليلة.» وأمضت اليوم تترقب انتصارها.

لا يختار المتآمرون دومًا أماكنَ سرية من أجل إعداد مخططاتهم. وكان المائة الحمر خصوصًا مشهورين بتشابه أماكن لقائهم. كانوا في السابق يذهبون إلى الطبيعة، ومثلما تهب الطبيعة النمر خطوطًا لا يُمكن تمييزها عن عشب الأدغال، كذلك كان من شأن المائة الحمر أن يختاروا للقاءاتهم مكانًا من الأماكن التي عادةً ما تُعقَد فيها اللقاءات.

كان المكان الذي عُقِدَت فيه المحاكمة هو قاعة النُّزُل التابعة لمؤسسة فخر ميلوال، إيه أو إس إيه؛ وهو الاختصار الذي يُمكن توسعته إلى الرهبنة المشتركة لأبناء العفة. لم يكن

الموقف المالي لمؤسسة فخر ميلوال قويًّا. كان وباء غير اعتيادي أصاب البحارة المعتدلين هو ما دعا إلى تأسيس النُّزُل، وكانت القاعة الصغيرة قد بُنِيَت بواسطة تدفق لرأس المال من وصايا غيرِ مألوفة، ومنذ الفشل الذريع الذي صاحب الاجتماعَ الأول لرابطة لندن، كان قدرٌ كبير من شئونها العامة قد سُيِّر بمهارة في هذا المبنى المقام على ضفة النهر. كانت الشرطة قد داهمته أثناء أيام الرعب، لكن لم يُكتشَف شيء ذو طابع يُؤدي إلى التجريم. وبسبب النجاح الذي واكب سياسة العلن، فضلت امرأة جراتس أن تُجازف بإقامة محاكمة علنية في قاعة معرضة لمداهمة الشرطة.

كان يجب أن يكون الرجل واعيًا بأن الهروب مستحيل. هُرِع رسل في كل الاتجاهات ليحملوا تعليماتها. واستُدعي قادة الحركة على وجه السرعة، واختيرَ مكان المحاكمة، وجرى الإعداد لمراسمَ كانت تخضع لسوابق راسخة، واتُّخِذَت ترتيبات للأدوات والأغراض التي طالما لعبت دورًا فعالًا في محاكمات منظمة المائة الحمر.

في حُجرة المحاكمة ذات الستائر السوداء وجدت امرأة جراتس صحبة كاملة. على سبيل المثال لا الحصر، كان من بين الجالسين هناك جنبًا إلى جنب معًا على المقاعد الطويلة المنخفضة ماليسكريفونا، وتشيزكي، وفيلانتيني، ودي رومانس، وغمغموا بالتحية وهي تدخل الغرفة وأخذوها إلى مقعدها في المكان الأعلى. جالت بناظرَيها سريعًا في الوجوه، معطية إشارة برأسها هنا ونظرة تقدير هناك. تذكرت آخر مرة ظهرت فيها أمام الأعضاء العاديين للحركة. افتقدت وجوهًا كثيرة كانت تلتفت إليها في تلك الأيام؛ ستارك، وفرانسوا، وكيتسينجر، الذين قُتِلوا على يد رجال العدالة الأربعة. ناسب مِزاجَها أن تتذكر أن الليلة ستُحاكم واحدًا ساعد على الأقل في قتل ستارك.

فجأة انتصبت واقفةً. كانت قد سنحت لها مؤخرًا فرص قليلة لاستعراض تلك القدرة على الخطابة التي كانت يومًا ما الأمر الوحيد الذي يجعلها جديرة بالاعتبار في مجالس منظمة المائة الحمر. كانت قدراتها على التنظيم قد أصبحت محلَّ احترام لاحقًا. شعرت بالحاجة إلى التدريب عندما شرعت في الكلام. وجدت نفسها تتردد بحثًا عن الكلمات، وفي مرة من المرات شعرت بأن إيضاحاتها لم تكن بارعة. لكنها استجمعت الثقة وهي تُتابع، وشعرت بالنشوة المتجاوبة من الجمهور المنبهر.

كانت القصة التي حكتها هي قصة الحملة. نعرف قدرًا كبيرًا منها؛ يُمكن تخمين القصة من وجهة نظر أعضاء منظمة المائة الحمر. وأنهت خطبتها بالإخبار بأمر الإمساك بالعدو.

«الليلة نُوجِّه ضربةً إلى أعداء التقدم هؤلاء؛ إن كانوا عديمي الرحمة، دعونا نُرِهم أن منظمة المائة الحمر لا يُمكن التفوق عليها في الضراوة. كما ضربوا ضربتهم، دعونا إذن نضرب ضربتنا؛ وبتوجيهنا لضربتنا، نعطي درسًا للرجال الذين قتلوا رفاقنا، لن ينسَوه، لا هم ولا العالم، أبدًا.»

لم يكن ثمة هتافٌ عندما انتهت؛ إذ كان ذلك هو النظام، ولكن صدرت همهمات وهم يُوجهون إليها عبارات الثناء؛ كانت مجموعة من العبارات غير مترابطة من المديح والإعجاب.

ثم قاد رجلان السجين.

كان هادئًا ومهتمًّا، رافعًا ذقنه المربعة في ثبات عندما أُلقيَت كلمات الاتهام الأولى وأخذ يعبث بأصابع يدَيه المكبلتَين في شرود ذهن.

التقت عيناه بهدوء بالوجوه العابسة التي اتجهت إليه، لكن مع متابعتهم للاتهام، ازداد انتباهًا، محنيًا رأسه ليلتقط الكلمات.

مرة واحدة قاطع الحديث.

قال بلغة روسية سلسة: «لا أستطيع أن أفهم ذلك تمامًا؛ فمعرفتي باللغة الألمانية محدودة.»

سألته المرأة: «ما جنسيتك؟»

أجاب: «إنجليزي.»

سألته: «هل تتحدث الفرنسية؟»

قال بسذاجة مبتسمًا: «أَتَعَلَّمُها.»

قالت: «أنت تتحدث الروسية.» وتابعت حديثها بتلك اللغة.

قال ببساطة: «أجل. أمضيتُ هناك أعوامًا كثيرة.»

بعد هذا، تُلِيَت انتهاكاته في مجملها بلغة فهمها. مرة أو مرتَين بينما كان القارئ يُتابع — كان القارئ هو إيفان أورانفيتش — ابتسم الرجل.

تعرفت امرأة جراتس عليه على الفور مدركةً أنه رابع المجموعة التي احتشدت حول باب شقتها في اليوم الذي قُتِل فيه بارثولوميو. سألته بطريقة رسمية عما لديه من أقوال قبل إدانته.

ابتسم مجددًا.

قال: «أنا لست واحدًا من رجال العدالة الأربعة؛ وأيًّا كان من يقول إنني كذلك، فهو يكذب.»

سألته باحتقار: «وهل ذلك كل ما لديك من أقوال؟»

أجاب بهدوء: «ذلك كل شيء.»

«هل تُنكر أنك ساعدت في قتل رفيقنا ستارك؟»

قال ببساطة: «لا أُنكر هذا. أنا لم أُساعد في قتله، لقد قتلته.»

انطلقت صيحة تعجب في وقت واحد من كل الأفواه.

«هل تُنكر أنك قتلت كثيرين من أعضاء منظمة المائة الحمر؟»

تريَّث قبل أن يُجيب.

قال بجديةِ رجل مفعم بإحساس بالمسئولية: «فيما يتعلق بمنظمة المائة الحمر؛ لا أعرف؛ لكنني قتلتُ أناسًا كثيرين.» ومجددًا سرت همهمات التعجب في أنحاء القاعة. لكن امرأة جراتس كانت تشعر بإحساس متزايد بالقلق على الرغم من نجاح الاستجواب.

«قلت إنك كنت في روسيا، هل قتلت رجالًا هناك؟»

هز رأسه إيجابًا.

«وفي إنجلترا؟»

قال: «أيضًا في إنجلترا.»

سألته: «ما اسمُك؟» بخطأ غير مقصود كان سؤالًا لم تكن قد صاغته سابقًا.

هز الرجل كتفَيه.

تساءل: «هل هذا يُهم؟» تبادرت إلى ذهنها فكرة. كانت قد رأت في القاعة ماجنوس اليهودي. كان قد عاش أعوامًا كثيرة في إنجلترا، وأشارت إليه ليقترب.

سألته همسًا: «إلى أي طبقة ينتمي هذا الرجل؟»

أجاب: «إلى الطبقة الدنيا. هذا مذهل، ألم تُلاحظي حينما، لا، أنتِ لم تُشاهدي عملية أسره. لكنه تحدث كرجل من رجال الشوارع، فلم يكن ينطق حرف «إتش» في بداية الكلمات.»

لاحظ الحيرة البادية عليها وشرح لها.

«إنها خدعة في ترتيب الحروف، تمامًا مثلما يقول الفلاح الروسي ...» وأعطاها مثالًا بالعامية الروسية.

سألته مجددًا: «ما اسمُك؟»

نظر إليها بمكر.

«في روسيا يدعونني الأب كوباب ...»

كان أغلب الحاضرين من الروس، وعندما نطق بالكلمة هبوا واقفين، وتراجعوا ووجوههم ممتقعة، وكأنما كانوا يخشون الاحتكاك بالرجل الذي وقف مكبلًا بلا حول ولا قوة في منتصف الغرفة.

وقفت امرأة جراتس مع الباقين. ارتعشت شفتاها وبدا في عينَيها المفتوحتَين على اتساعهما رعبٌ لحظي.

تابع قائلًا: «لقد قتلت ستارك، بموجب سلطتي. وكذلك فرانسوا.» وجال بناظرَيه في الغرفة بتمهل، وتابع قائلًا: «يومًا ما، سأقتل أيضًا ...»

صاحت قائلة: «توقف!» ثم قالت:

«أطلقوا سراحه.» وبتساؤل، قطع شميدت القيود التي كانت تُكبله. فتمطَّى.

قال: «عندما أمسكتم بي، كان معي كتابٌ؛ ستفهمين أن هنا في إنجلترا أجد السلوى في الكتب، وأنا، يا من عانيت الكثير جدًّا من المعاناة والعوز نتيجة الابتعاد عن القانون، أسعى جاهدًا إلى إصلاح البشرية مثلكم، ولكن بطريقة مختلفة.»

أعطاه أحدهم كتابًا.

نظر إليه، وهز رأسه، ودسه في جيبه.

قال وهو يستدير متجهًا نحو الباب المفتوح: «وداعًا.»

قالت امرأة جراتس، وهي ترتجف: «باسم الرب، امضِ في سلام، أيها الأب الصغير.»

وسار الرجل جيسين، الذي كان في وقت ما رئيسًا للمجلس الأعلى، ومؤخرًا الجلاد العام لإنجلترا، خارجًا، ولم يُعِق خروجه أحد.

كُسِرَت شوكة المائة الحمر. كان فالموث يعرف ذلك جيدًا. فأبقى في الخدمة فرقةً من الرجال على أهبة الاستعداد دومًا عند المحطات الطرفية الكبرى للندن، وارتبط بهؤلاء أفراد دزينة من قوات شرطة سرية أوروبية. كان يُقَدَّم نفس التقرير يومًا بعد يوم. كان أشخاص، لم يكن ثمة شك حتى في وجودهم في لندن، قد غادروا عبر ميناء هارويتش. وكان الأشخاص الذي ظهروا، على نحوٍ يدعو إلى الدهشة، من العدم، قد ذهبوا في قطار الساعة الحادية عشرة من فيكتوريا؛ وعبر طريق هُل وستوكهولم كان عشرون قد غادروا في يوم واحد، وكان ثمة آخرون جعلوا ليفربول، وجلاسجو، ونيوكاسل ميناء مغادرتهم.

أعتقد أنه حينئذٍ فقط أدركَت شرطة سكوتلاند يارد نفوذ القوة التي كانت تقبع خامدة في العاصمة، أو أدركت احتمالات الدمار التي كانت وشيكةً في أيام الرعب.

مما لا شكَّ فيه أن كلَّ مجموعة من الأسماء ظهرت على مكتب رئيس الشرطة جعلته يُفكِّر بعمق أكثرَ من أي وقت مضى.

قال مرتعبًا عندما قُدِّم الاقتراح: «اقبضوا عليهم! اقبضوا عليهم! اسمعوا، هل رأيتم من قبل جحافل النمل المحارِب تُهاجم منزلًا في أفريقيا وهي تسير في موكبٍ داخلةً، بعدد لا يُحصى من الأفواج عند منتصف الليل وتُزيل كل شيء من الدجاج إلى الخنافس؟ هل رأيتموها من قبل تُعيد تنظيم نفسها في الصباح وتمضي في موكبها عائدة إلى ديارها من جديد؟ لن تُفكروا في القبض عليها، أليس كذلك؟ لا، ستجلسون فحسب بهدوء بعيدًا عن متناولها وستكونون سعداءَ حينما تكون آخر قدم حمراء صغيرة قد اختفَت!»

كان أولئك الذين يعرفون منظمة المائة الحمر على أفضل نحو متفقين بشدة مع هذه الفلسفة.

أبلغه فالموث: «لقد قبضوا على جيسين.» قال رئيس الشرطة: «أوه!»

«عندما أفصح عن هويته، تخلصوا منه بسرعة.»

قال رئيس الشرطة في تفكير: «لقد تساءلت كثيرًا عن السبب في أن رجال العدالة الأربعة لم يتخلصوا من ستارك بأنفسهم.»

أقر فالموث قائلًا: «كان هذا غريبًا نوعًا ما، لكن ستارك كان رجلًا صدر بحقه حكم، شأنه شأن فرانسوا. بطريقة ما تحصلوا على أوامر الضبط والإحضار الأصلية، واستنادًا إليها فعل جيسين ما فعله.»

أومأ رئيس الشرطة برأسه موافقًا إياه. ثم تساءل: «والآن، ماذا عنهم؟» كان فالموث قد توقع طرح هذا السؤال عاجلًا أو آجلًا. سأله بسخرية مستترة قليلًا: «هل تقترح أن نقبض عليهم، يا سيدي؟ لأنه إن كنتَ تقترح ذلك، يا سيدي، فيتعين عليَّ فقط أن أُذَكِّرَك بأننا نُحاول أن نفعل ذلك منذ بضع سنوات.» تجهم وجه رئيس الشرطة.

وقال: «من المذهل أننا ما إن نكون في موقف مثل، هلع المائة الحمر وهلع رجال العدالة الأربعة، على سبيل المثال، حتى تُصيبنا الحيرة تمامًا، وذلك ما سوف تقوله الصحف. لا يبدو ذلك أمرًا جديرًا بالتصديق، لكنه كذلك.»

وهنا أُورِد دفاع مفتش الشرطة عن سكوتلاند يارد في المحضر بكامله.

قال فالموث: «ما تقوله الصحف لا يقض مضجعي بالليل أبدًا. لم يفهم أحد تمامًا عمل الشرطة في هذا البلد، وبالتأكيد لم يفهمه رجال الصحافة.»

«توجد طريقتان للكتابة عن رجال الشرطة، يا سيدي. إحداهما بالتعامل معهم بأسلوب كتابة الصحف للعناوين الرئيسية «خطأ فادح جديد للشرطة» أو «الشرطة والعامة»، والأخرى بالتعامل معهم بأسلوب المجلات، الذي يُظهرهم في مظهر الضعفاء

استنادًا إلى أدلة كاذبة، بينما يبين لهم مواطن مدني ذو مظهر براق من الخارج كيفية قيامهم بعملهم، أو في مظهر أشخاص غامضين يضعون لِحًى مزيفة ويظهرون في أنسب وقت، ويقولون بصوت مرتفع: «باسم القانون، أقبض عليك»!»

«حسنًا، ليس عندي ما يمنعني من الإقرار بأنني لا أعرف أيًّا من النوعَين. لقد مضى على عملي بالشرطة ثلاثة وعشرون عامًا، والمساعدة الوحيدة التي تلقَّيتها من مواطن مدني كانت من رجل اسمه بلاكي، ساعدني في العثور على جُثة امرأة كانت قد اختفت. كنتُ متحاملًا جدًّا عليه، لكن ليس عندي ما يمنعني من الإقرار بأنه كان في غاية الذكاء وأنه تتبع أدلته ببراعة جديرة بالملاحظة.

يوم أن وجدت الجثة قلت له:

«يا سيد بلاكي، لقد منحَتني قدرًا كبيرًا من المعلومات عن تحركات هذه المرأة، في الواقع، أنت تعرف قدرًا أكبر بكثير مما ينبغي عليك معرفته؛ لذا يتعين عليَّ أن أقبض عليك للاشتباه في تسببك في وفاتها.»

قبل وفاته أدلى باعتراف كامل، ومنذ ذلك الحين يسرني دومًا أن أتلقى أكبر قدر يُمكنني الحصول عليه من النصائح والمساعدة قدر وسعي.

عندما يسألني الناس أحيانًا عن براعة سكوتلاند يارد، لا يُمكنني أن أرويَ لهم حكايات مثل التي تقرَءُون عنها. لقد تعاملت مع قتلة، وأناركيين، ولصوص منازل، وأشخاص وضيعين عاديين، لكنهم في الغالب كانوا يؤدون عملهم بطريقة مألوفة ويلوذون بالفرار. وما إن يلوذوا بالفرار، كنا نستخدم وسائل مألوفة إلى حدٍّ ما ونُعيدهم.

إذا سألتموني عما إذا كنتُ قد تعرضت لخطر مروع عند القبض على قتلة ومجرمين يائسين، فسأُجيب بالنفي.

عندما يجد المجرم العاديُّ نفسه محاصَرًا، يقول: «حسنًا، يا سيد فالموث؛ لقد انتهى الأمر.» ويمضي معي في هدوء.

الجريمة والمجرمون يتبعون أنماطًا ثابتة. إنهم نباتات حولية شديدة الاحتمال لها طرق معمِّرة. تُربك الملابسات الاستثنائية الشرطةَ مثلما تُربك الآخَرين. لا يُمكنك أن تُدير عملًا بما يتناسب مع طرق العمل وتكون مستعدًّا استعدادًا تامًّا لأي طارئ. سيقدم لك متجر وايتليز كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ، ولكن لو طلبت سيدةٌ من بائعة في المتجر أن تحمل عنها رضيعها بينما تذهب إلى قسم اللحوم المعلبة، فإن الفتاة والمدير والنظام كله سيُصعَق، لأنه لا توجد ترتيبات لحمل الرُّضَّع. ولو أن تاجر بضائع من مانشستر،

وهو يفتح بضاعته، وجد ثعبانًا راقدًا بكل ارتياح في الحُزمة، فسيُصْعَق أيضًا؛ لأن التاريخ الطبيعي ليس جانبًا من تدريبه العملي، ولن يكون متأكدًا تمامًا مما إذا كان دودةً كبيرة أو أَصَلَةً عاصرة.»

كان رئيس الشرطة مستمتعًا بحديثه.

قال: «إنك تمتلك حسًّا فكاهيًّا غير متوقع بالمرة، والمغزى هو ...»

قال فالموث: «إن الأمر غير المتوقع دائمًا ما يصعقك، سواءٌ كان مزحةً أو جريمة.» وغادر راضيًا إلى حد ما عن نفسه.

في غرفته وجد رسولًا منتظرًا.

«سيدة تريد رؤيتك، يا سيدي.»

تساءل متفاجئًا: «من هي؟»

أعطاه الرسول قُصاصة ورق وعندما قرأها صفَّر مندهشًا.

«شيء غير متوقع، بحق ... أدخلها.»

على الورقة كان مكتوبًا، «امرأة جراتس».

الفصل الحادي عشر

مانفريد

جلس مانفريد وحيدًا في منزله في لويشام — كان معروفًا للسيدة العجوز التي كانت مدبرة منزله باعتباره «سيدًا أجنبيًّا في الحقل الموسيقي» — وفي الضوء الخافت للمصباح المظلل، بدا متعبًا. كان ثمة كتاب موضوع على الطاولة القريبة من متناول يده، وطقم قهوة فضي وفنجان قهوة فارغ على الكرسي الذي بلا ظهر إلى جانبه. شعر بتفاعل. كان هذا الرجل الغريب قد استعد لمهمة بلا نهاية. كان تدمير قوات منظمة المائة الحمر هو نهاية قتال مَهَّد السبيل لقتال آخر؛ لكنه كان منهَكًا جسديًّا.

كان جونزاليس قد غادر في صباح ذلك اليوم إلى باريس، وذهب بويكارت على متن قطار بعد الظهر، أما هو فكان سينضمُّ إليهما غدًا.

كان الجهد الجهيد للقتال قد بلغ من الثلاثة جميعهم مبلغه. من الناحية المالية، كانت تكلفة الحرب باهظة، لكن كان بمقدورهم تحمُّل ذلك الجهد على نحو أفضل من أي جهد آخر، إذ لو كان بحوزتهم ثروة، كورتلاندر؛ لكانوا يعرفون إلى من يلجَئُون في حالة الاحتياج.

كانوا قد فتشوا في العالم كله قبل أن يجتمعوا — رجال العدالة الأربعة الأوائل — معًا؛ مانفريد، وجونزاليس، وبويكارت، والرجل الذي رقد إلى الأبد في القبر الذي تنمو فيه الزهور في بوردو. ومثل رجال يُقسِمون يمين الكهنوت، تغلبوا على آلام الحياة ومتاعبها. كان كل رجل كتابًا مفتوحًا للآخر، مفصِحًا عن أفكاره الأكثر سرية؛ إيمانًا منهم بالمشاركة الوجدانية، التي كانت الفكرةَ المسيطرة المتحكِّمة فيهم جميعًا.

كانوا قد جعلوا اسم رجال العدالة الأربعة شهيرًا أو سيئ السمعة (حسب وجهة نظرك) في سائر أنحاء العالم المتحضر. صاروا قوة جديدة في الحياة العامة والخاصة. كان ثمة رجال، متحررون من قيود القانون، يتسببون في بؤس رفقائهم؛ غيلان بشرية مريعة

تسمن بالاقتيات على أجساد وأرواح الأبرياء والمغلوبين على أمرهم؛ أقطاب عظيمة تستعين بالقانون، أو تُنحيه جانبًا حسبما تقتضي الظروف. كل هؤلاء أصبحوا خاضعين لقانون جديد، لسلطة قضائية جديدة. كانت قد نشأت أنظمة استعصت على التصحيح؛ مؤسسات فوق العقاب؛ أفراد محميون بتشريعات مرسومة بدهاء، وآخرون كانوا يعرفون بدقة حدَّ التسامح. باسم العدالة، كان هؤلاء الرجال يضربون ضربتهم بسرعة، وبلا عاطفة، ولا رحمة. قُتِل كبار المحتالين، والقوادون، ومحرضو الشهود، ومقدمو الرشوة للمحلَّفين.

لم يكن ثمة تدرج في العقوبة؛ تحذير، ثم تحذير ثانٍ، ثم القتل.

نتيجة لذلك، أصبح اسمهم رمزًا، يرتعد منه الأشقياء وهم يُمارسون عملهم، تملؤهم الرهبة من التحذير ومستعدون في معظم الحالات للانصياع له. صارت الحياة أحلى، وأسلم لكثير من الرجال الذين وجدوا المظروف الرمادي المخضر الرفيع على مائدة إفطارهم في الصباح؛ لكنَّ آخرين أصروا على متابعة طريقهم، مطبقين جهرًا القانون، الذي كانوا قد تعدَّوا عليه، إن لم يكن من حيث النصُّ فمن حيث الروح. كانت النهاية مؤكدة تمامًا، ولا أعرف رجلًا واحدًا نجا من العاقبة.

في إطار التكهن بهُويتهم، جزمت شرطة العالم بالإجماع بأمرَين. كان الأول أن هؤلاء الرجال أثرياء ثراءً فاحشًا؛ وهو ما كان صحيحًا بالفعل، والثاني أن واحدًا أو اثنَين منهم لم يكونا من العلماء الأوغاد؛ وذلك أيضًا كان صحيحًا. أما بشأن الرجل الرابع الذي انضم إليهم مؤخرًا، فقد سلك التكهن منعطفًا أوسع. ابتسم مانفريد عندما فكر في هذا العضو الرابع، وفي أمانته، ومميزاته الوجدانية والعقلية الرائعة، وحماسه، وميله إلى «الانحدار من بعد توازن»؛ كان جونزاليس هو من صاغ تلك العبارة. كانت ابتسامة حنونة. فلم يعد الرجل الرابع منتميًا إلى الأخوية؛ كان قد ذهب؛ إذ كانت المهمة قد اكتملت، ولم يكن ثمة أسباب أخرى.

هكذا كان مانفريد يتفكر، حتى دقت الساعة الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة معلنةً العاشرة، ثم أشعل النار تحت غلاية القهوة وصب فنجانًا آخر من القهوة. وبينما هو منهمك في هذا، سمع صوت الرنين البعيد لجرس الباب وصوته وهو يُفتَح. ثم سمع صوت همهمات والصعود درجتين على السلالم. لم يكن ينتظر زوَّارًا، لكنه كان مستعدًّا لهم دومًا في أي وقت.

قال، ردًّا على الطَّرق على الباب: «ادخل.» مَيَّز الطرقة المعتذرة لمدبرة المنزل.

«سيدة، سيدة أجنبية تُريد رؤيتك.»

قال بلطف: «أدخليها، من فضلِك.»

كان منشغلًا بالغلاية عندما دخلت. لم يرفع رأسه لينظر، ولا سأل عن هُوية القادم. وقفت مدبرة منزله للحظةٍ حائرةً على عتبة الباب، ثم خرجت، وتركتهما معًا.

قال: «أستمحيكِ عذرًا لدقيقة. من فضلكِ اجلسي.»

صب القهوة بيد ثابتة، وسار إلى مكتبه، وأخذ يفرز عددًا من الخطابات، وألقى بها في الموقد، ووقف لحظةً يُراقبها تحترق، ثم نظر إليها.

لم تُعِر الفتاة انتباهًا لدعوته لها بالجلوس، ووقفت منتظرةً في استرخاء، واضعةً إحدى يدَيها على عجيزتها والأخرى متدلية بحرية.

سألها مجددًا: «ألن تجلسي؟»

قالت باقتضاب: «أُفَضِّل الوقوف.»

قال: «إذن أنتِ لستِ متعبةً كشأني.» وعاد للجلوس غائصًا في مقعده.

لم ترد، ولبضع ثوانٍ لم يتكلم أيٌّ منهما.

قال مازحًا: «هل نسيت امرأة جراتس أنها خطيبة؟» بدا له أنه كانت ثمة لهفة كبيرة في تلكما العينَين، وغيَّر من لهجته.

قال بلطف: «اجلسي، يا ماريا.» لاحظ التورد الذي ظهر على وجنتَيها، وأساء فهم مغزاه.

أسرع يُصحح الانطباع قائلًا: «لا، لا! أنا جادٌّ الآن، لستُ أتهكم، لماذا لم تذهبي مع الآخرين؟»

قالت: «لديَّ عمل يتعين عليَّ القيام به.»

مد يدَيه في حركة تدل على الإرهاق.

قال بابتسامة مريرة: «عمل، عمل، عمل، ألم ينتهِ العمل؟ ألا توجد نهاية لعملك هذا؟»

قالت وهي تنظر إليه بطريقة غريبة: «النهاية قريبة.»

قال لها بلهجة آمرة: «اجلسي.» واستقرت في أقرب مقعد وأخذت تنظر إليه.

ثم كسرت الصمت.

سألته ببعض الغضب: «ما كُنهك؟ من أعطاك «السُّلْطَة»؟»

ضحك من قولها.

«كُنهي، مجرد رجل، يا ماريا. السُّلْطَة؟ كما تفهمينها، لا أحد.»

أخذت تُفكر برهة.

قالت: «لم تسألني عن سبب مجيئي.»

«لم أسأل نفسي، لكن يبدو طبيعيًّا أن نلتقيَ أنا وأنتِ مجددًا، لنفترق.»

سألته فجأة: «ماذا يدعونك؟ أقصد أصدقاءك. هل يقولون «الرجل ذو اللحية» أم الرجل الطويل؟ هل اعتنت بك أي امرأة من قبل وخاطبتك باسم؟»

مر ظل على وجهه لثانية.

قال بهدوء: «أجل. قلت لكِ إنني إنسان؛ لستُ شيطانًا ولا نصفَ إله، ولم أُولَد من زبَد البحر أو مِرجَل الساحرات.» ثم ابتسم، وأضاف: «لكن ابن أبوَيْن أرضيَّين، والرجال يدعونني جورج مانفريد.»

كررت الاسم كما لو كانت تتعلم درسًا: «جورج. جورج مانفريد.» نظرت إليه طويلًا وبجدية، وتجهمت.

سألها: «ما الذي ترينه ويثير استياءكِ؟»

قالت بسرعة: «لا شيء. كل ما في الأمر أنني، لا يُمكنني أن أفهم، أنت مختلف ...»

«عما توقعتِ.» أحنَت رأسها كناية عن الموافقة. «توقعتِ مني أن أُظْهِر الانتصار، أن أضع نفسي في موقف دفاع؟» أومأت برأسها إيجابًا مجددًا.

تابع يقول: «لا، لا، لقد انتهى ذلك. أنا لا أسعى وراء انتصار، أنا أشعر بالارتياح لأن قوة أصدقائك تفتتت. وأنا أنأى بكِ عن مذلة هزيمتهم.»

قالت بتحدٍّ: «أنا لستُ أفضل ولا أسوأ منهم.»

قال بجدية: «ستكونين أفضل عندما يزول الغضب، عندما تُدركين أن شبابك لم يكن مقدرًا له أن يكون من أجل تضحية الأناركية المريعة.»

مال إلى الأمام وأخذ يدها المرتخية وأمسك بها بين راحتَيه.

قال بنعومة: «يا طفلتي، يجب أن تتركي هذا العمل. انسَي كابوس ماضيكِ، أخرجيه من ذهنك، حتى يصل بكِ الأمر إلى الاعتقاد بأن المائة الحمر لم يكن لهم وجود مطلقًا.»

لم تسحب يدها من يده، ولا حاولَت أن تُوقِف الدموع التي انهمرت من عينَيها. شيء ما كان قد دخل إلى روحها، تأثير فاق كل وصف أو تعريف. كان عاملٌ رائع قد أذاب الشيء المصنوع من الجرانيت أو الفولاذ، الذي كانت تعتقد بسذاجة أنه قلبها، وتركها ضعيفة ومهتزة في أثناء ذلك.

كم كان صوته ناعمًا وهو يقول: «ماريا، لو أنك عرفتِ يومًا حب الأم، فكري في ذلك؛ هل أدركتِ يومًا ماذا كانت حياتكِ الصغيرة تُمثل لها؟ كيف خططَت وفكرت وعانت من

أجلكِ؟ ولماذا؟ من أجل أن تقف اليدان اللتان قبَّلَتهما ضد حياة البشر! هل دعت الرب أن يحفظك بصحة وعافية وروح طاهرة حتى تُصبح نعمه لعنة على عالمه الجميل؟»

بحنوٍّ أبٍ اجتذبها إليه، حتى صارت على ركبتَيها أمامه ووجهها النائح مضموم إلى جسده.

كانت ذراعاه القويتان تُحيطان بها، ويده تُمسد على شعرها.

قالت وهي تنشج: «أنا امرأة شريرة، امرأة شريرة، شريرة.»

قال بحزن: «صهٍ؛ لا تجعلينا نستقي مفهومنا عن الشر من أفعالنا، وإنما من نوايانا، مهما كانت خاطئة، ومهما كانت تتجاوز القانون المكتوب.»

لكن نشيجها ازداد، وتشبثت به كما لو كانت تخشى أن يتركها.

خاطبها كما لو كانت طفلة خائفة، موبخًا إياها تارة، وساخرًا منها بمداعبة لطيفة تارة، وازداد هدوءُها، وبعد قليل رفعت وجهها الملطخ ناظرةً إليه.

قالت: «اسمع، أنا، أنا، آه، لا أستطيع، لا أستطيع أن أقولها.» وأحنت رأسها ودفنت وجهها في صدرها.

ثم بصعوبة رفعت رأسها مجددًا.

«لو رجوتك، لو توسلت إليك أن تفعل شيئًا من أجلي، هل تفعله؟»

نظر إلى عينَيها، مبتسمًا.

«لقد فعلتَ أشياء كثيرة، لقد قتلتَ، أجل، أجل، دعني أقولها، أعرف أنني أُولمك، لكن دعني أُكْمِل.»

قال ببساطة: «أجل، لقد قتلت.»

«هل شعرت بالأسى على أحدهم وأنت تقتله؟»

هز رأسه إيجابًا.

تابعت، وقد أثرت فيه معاناتها: «ومع ذلك يُمكن أن تقتل إذا اعتقدت أنه يُمكن أن تقتل جسدًا وتنقذ روحًا.»

هز رأسه إيجابًا من جديد.

همست: «أجل، أجل.» وحاولت أن تتكلم. حاولت مرتَين أن تصوغ الكلمات، وفشلت في المرتَين. ثم تراجعت ببطء إلى الوراء وهي تضع يدَيها على صدره، وجثت أمامه وشفتاها متباعدتان وصدرها يعلو ويهبط.

قالت لاهثة: «اقتلني؛ لأنني خنتك لصالح الشرطة.»

ظل ساكنًا دون أن يُبديَ أي إشارة، جالسًا هناك متكومًا تمامًا على المقعد الضخم، كما لو أن كل عضلة في جسده قد ارتخت.

صاحت بعنف: «هل تسمعني؟ لقد خنتك لأنني، أظن، أنني أحبك، لكنني، لم أكن أعرف هذا، لم أكن أعرف هذا! لقد كرهتك لدرجة أنني شعرت بالأسى لأجلك، ودائمًا ما فكرتُ فيك!»

كانت تعرف من نظرة الألم في عينَيه مقدار المعاناة التي سببَتها له كلماتها.

بطريقة ما تكهنت بأن ألم الخيانة أقل.

همست: «لم أُحدث نفسي بذلك قط. لم أُفكر في ذلك قط في أكثر أفكاري سريةً، ومع ذلك، كان موجودًا، كان موجودًا طوال الوقت، منتظرًا الإفصاح عنه، وأنا أشعر بسعادة أكبر، رغم أنك ستموت، ورغم أن كل ساعة في حياتي ستكون بمثابة حياة كاملة من الألم، أشعر بسعادة أكبر لأنني قلتها، أشعر بسعادة أكبر لأنني ظننت أنني لن أستطيع أبدًا أن أفعل.

لقد تساءلت لماذا تذكرتك، ولماذا فكرت فيك، ولماذا تأتي في كل أحلامي. ظننت أن هذا لأنني كنت أكرهك، لأنني أردت أن أقتلك، وأن أضعك تحت رحمتي، لكنني أعرف الآن، أعرف الآن.»

ترنحَت يمينًا وشمالًا، ويداها متشابكتان في خضم ألمها.

صاحت: «ألا تتكلم؟ ألا تفهم، يا حبيبي؟ لقد سلمتك للشرطة، لأنني، يا إلهي! لأنني أحبك! لا بد أن أفعل ذلك!»

مال إلى الأمام ورفع يدَيه وأقبلت عليه وهي تكاد يُغشى عليها.

تمتم قائلًا: «ماري، يا طفلتي.» ورأت كم كان شاحبًا، «إننا في موقف غريب، أن نتحدث أنا وأنتِ عن الحب. يجب أن تنسي هذا، يا صغيرتي؛ دعي هذا يكون موضع استيقاظكِ من حلمكِ السيئ؛ امضي في حياتِكِ الجديدة، في حياة فيها الأزهار تتفتح، والطيور تُغني، وفيها الراحة والسلام.»

لم تكن تُفكر حينئذٍ سوى في الخطر الذي كان واقعًا فيه.

قالت بأنين: «إنهم بالأسفل. لقد أحضرتُهم إلى هنا، لقد أرشدتهم إلى مكانك.»

نظر إلى وجهها مبتسمًا لها.

قال: «كنتُ أعرف.»

نظرت إليه غير مصدقة.

قالت ببطء: «كنتَ تعرف.»

«أجل، عندما أتيتِ.» وأشار إلى كومة الأوراق المحترقة في الموقد «كنتُ أعرِف.»

سار إلى النافذة ونظر إلى الخارج. شعر بالرضا مما رآه.

عاد إلى حيث كانت جاثيةً على الأرض ورفعها ليُوقفها على قدَمَيها.

وقفت مترنحةً، لكنه سندها بذراعه. أخذ يُنصت، وسمع صوت الباب بالأسفل وهو ينفتح.

قال مجددًا: «يجب ألا تُفكري فيَّ.»

هزت رأسها في عجز، وارتعشت شفتاها.

قال في توقير: «ليُباركك الرب ويُعاونْكِ.» وقبَّلَها.

ثم استدار ليُواجه فالموث.

قال الشرطي: «جورج مانفريد.» ونظر إلى الفتاة في حيرة.

قال مانفريد بهدوء: «ذاك اسمي. أنت المحقق فالموث.»

صحح الآخر قوله قائلًا: «المفتش.»

قال مانفريد: «أنا آسف.»

قال فالموث: «يتعين عليَّ أن أقبض عليك للاشتباه في كونك عضوًا في تنظيم يُعْرَف باسم رجال العدالة الأربعة، وبناءً عليه فأنت متورط في الجرائم التالية ...»

قال مانفريد: «سأُعفيك من تلاوة التهم.» ورفع يدَيه أمامه. للمرة الأولى في حياته شعر ببرودة المعدن الصلب على معصمَيه.

كان الرجل الذي يضع الأصفاد في يدَيه عصبيًّا ووضعها بغير إتقان، وبعد أن نظر مانفريد إلى القيد باهتمام، رفع يدَيه.

وقال: «هذا ليس مقفلًا بإحكام.»

ثم، وهم يقتربون محيطين به، استدار نصف استدارة نحو الفتاة وابتسم.

قال بنعومة: «من يعرف كم ستكون الأيام المقبلة مشرقةً لكلَينا؟»

ثم أخذوه ومضَوا.

الفصل الثاني عشر

في سجن واندزورث

كان تشارلز جاريت، الصحفي الرائع، قد كتب السطر الأخير من وصف طريف لحفل موسيقي غنى فيه أحد وزراء الحكومة أغانيَ شعبية رديئة. كتب تشارلز بصعوبة؛ لأن الموقف نفسه كان مضحكًا جدًّا، حتى إن استخراج الفكاهة الخفية فيه كان أمرًا يدعو إلى الأسى أكثر من المعتاد. لكنه كان قد انتهى من الكتابة ووضع رزمة الأوراق المنسوخة على مكتب محرر الطباعة؛ كتب تشارلز في المتوسط ستَّ كلمات في الصفحة، وكانت قصة تشغل نصف عمود بقلمه تُعادل رواية من ثلاثة أجزاء.

توقَّف تشارلز ليُهدد ساعيًا كان قد أخطأ في إرسال خطاب، وسار على مهل ليدخل مكاتبَ هادئة مختلفة لكي «يرى من كان هناك»، واضعًا معطف المطر الخاصَّ به على ذراعه، وعصاه في يده، حتى توقف في نهاية تجواله أمام آلة شريط الأخبار التي لا تتوقف عن الطقطقة. نظر عبر الصندوق الزجاجي الذي كان يحمي الآلة، وكان مهتمًّا برسالة من طهران يجري استقبالها.

«... في وقت مبكر. أبلغ الصدر الأعظم مراسل التبادل أنْ سيجري الدفع قُدمًا في إنشاء الخط ...»

توقف الشريط عن تلعثمه وتحرك بسرعة في حماس، ثم تبع ذلك سلسلة من الهزات السريعة التي أزالت الرسالة غير المكتملة.

بعد ذلك، ورد في الشريط: «قُبِض على زعيم تنظيم رجال العدالة الأربعة في لندن الليلة.» فركض تشارلز مقتحمًا غرفة التحرير.

فتح الباب على مِصراعَيه دون مقدمات، وأعاد على الأسماع القصة التي أوردتها الآلة الصغيرة.

تلقَّى رئيس التحرير الأشيب الخبر بهدوء، وتسببت الأوامر التي أصدرها في الساعات الخمس التالية في إزعاج نحو عشرين أو ثلاثين شخصًا مسالمًا.

بدأ بناء «قصة» رجال العدالة الأربعة من أدنى درجات السُّلم الفكري.

«يا فتى! أحضر ست سيارات أجرة إلى هنا بسرعة، بوينتر، هاتف المراسلين في، اتصل بنادي لامبس وتحقق من كون أوماهوني أو أي أحد آخر من شبابنا البارعين هناك، توجد خمسة أعمدة عن رجال العدالة الأربعة في القبو، أحضرها، يا سيد شورت، الصور، أرسل برقية إلى ماسوني ليذهب إلى مركز الشرطة ويرى إن كان بوسعه أن يعثر على شرطي على استعداد لأن يُعطيَه مادةً لرسم تقريبي، هيا اذهب يا تشارلز، واحصل على القصة.»

لم يكن ثَمة اضطراب، ولا تزاحم؛ كان الأمر يشبه بالضبط المشهد على سفينة حربية عندما ينطلق أمر «أخلوا السطح السفلي للسفينة للعمل.» كانت مدة ساعتَين للحصول على القصة ووضعِها على الورق فسحةً كافية، ولم يكن ثمة حاجةٌ إلى التحفيز.

لاحقًا، مع تحرك عقارب الساعة التي لا ترحم، جاءت سيارة أجرة تلو أخرى مسرعةً إلى مكتب الصحيفة الكبيرة، وخرج منها شبان متأهبون وثبوا حرفيًّا داخل المبنى. فيما بعد، بينما كان ثمة موظَّفو تشغيل منتظرون، يجلسون في توتر أمام لوحات مفاتيح آلات اللاينوتايب، جاء تشارلز جاريت وهو يقوم بأمور جديرة بالملاحظة ببقية قلم رصاص ورزمة من ورقة طباعة رفيع.

كانت صحيفة «ميجافون» هي الصحيفة التي تألقت على نحو رائع وسط الصحف المنافسة الأخرى، بصفحات — وأنا هنا أقتبس وجهة النظر المليئة بالحقد لمحرِّر الأخبار بصحيفة «ميركوري» — «برزت مثل صدرية وكيل مراهنات سباقات خيل مبهرجة بمربعات صارخة الألوان».

كانت صحيفة «ميجافون» هي التي ألهبت شغف العامة، وكانت المسئولة في المقام الأول عن الحشد الضخم الذي تجمَّع خارج محكمة شرطة جرينيتش، وتدفق بأعداد غفيرة إلى سفح تلة بلاكهيث، بينما كان مانفريد يخضع للتحقيقات الأولية.

«جورج مانفريد، في التاسعة والثلاثين من عمره، بلا عمل، يقطن في هيل كريست لودج، بسان جون.» بهذه الطريقة العادية قُدِّم إلى العالم.

ظهر بمظهر مذهل في قفص اتهام بقضبان من الصلب. وُضِع له كرسي، وعُيِّنت له حراسة لم تُعَيَّن إلا لقلة من السجناء من قبل. أُعِدَّت زنزانة خاصة لاستقباله، وخروجًا عن العرف المعمول به، اختِيرَ عدد إضافي من الحراس لمراقبته. لم يُرِد فالموت أن يُخاطر.

لم يكن للتهمة التي كانت قد لُفِّقَت له علاقة بأي قضية معروفة. فقبل أعوام عديدة، عُثِر على رجل يُدعى صامويل ليبسكي — وهو صاحب عمل سيئ السمعة من إيست إند، كان يبخس العاملين لديه أجورهم ويُكلفهم ما لا يُطيقون — قتيلًا مع الإعلان النمطي المعتاد بأنه سقط تحت مقصلة عدالة رجال العدالة الأربعة. بناءً على هذا أسست وزارة الخِزانة قضيتها وأحالتها إلى القضاء؛ وكانت قضية أُعِدَّت بدقة شديدة وعلى نحو مقنع جدًّا، وتم حفظها في الأدراج إلى حين القبض على واحد أو آخر من رجال العدالة الأربعة.

بتصفح الآلاف من قصاصات الصحف التي تناولت التحقيق الأوَّلي مع مانفريد ومحاكمته، صُعِقْتُ من غياب أي عنصر قوي أو مروع، مثلما يُمكن للمرء أن يتوقع أن يجد في محاكمة تحظى باهتمام على مستوى الدولة بهذا الوصف. بتلخيص الأدلة التي قُدِّمَت إلى محكمة الشرطة، يُمكن للمرء أن يُرتب «شهادات» عشَرة أو نحو ذلك من الشهود العاديين الذين كانت أقوالهم كما يلي:

شرطي: «لقد عثرت على الجثة.»

محقق: «لقد قرأت البطاقة.»

طبيب: «لقد أعلنتُ وفاته.»

رجل واحد فقط، لديه حَوَل بسيط ويتكلم بإنجليزية ركيكة، قال: «أعرف هذا الرجل المدعو ليبسكي، لقد كان رجلًا صالحًا وكان يستخدم عقله في ممارسة عمله.»

وأقوال من هذا القبيل.

رفض مانفريد أن يدفع بأنه «مذنب» أو «غير مذنب». تكلم مرة واحدة فقط أثناء إجراءات سير دعوى محكمة الشرطة، وذلك فقط عندما وُجِّه إليه السؤال الرسمي.

قال بوضوح: «أنا مستعدٌّ للامتثال لنتيجة محاكمتي، ولا يُهِم كثيرًا على أي حال إن قلت إنني «مذنب» أو «غير مذنب».»

قال القاضي: «سأُدوِّن دفاعك على أنه «غير مذنب».»

فانحنى له مانفريد.

وقال: «ذلك حسب تقدير نيافتكم.»

في السابع من يونيو أُحيل رسميًّا إلى المحاكمة. التقى في مقابلة قصيرة مع فالموث قبل أن يُؤخَذ من زنازين محكمة الشرطة.

ربما كان فالموث يجد صعوبة في تحليل مشاعره تجاه هذا الرجل. لم يكن هو نفسه يعرف إن كان مسرورًا أم آسفًا أن القدَر ألقى بالزعيم المهيب بين يدَيه.

كان مسلكه مع مانفريد مسلك شخص أدنى مكانةً مع شخص أعلى منه مكانة، وربما وجد ذلك صعبًا للغاية في تفسيره.

عندما فُتِح باب الزنزانة لإدخال المفتش، كان مانفريد يقرأ. قام من جلسته بابتسامة مبتهجة لتحية زائره.

قال بلطف: «حسنًا، يا سيد فالموث. ها نحن ندخل الفصل الثانيَ والأكثر جدية في المسرحية الدرامية.»

قال فالموث بصراحة: «لا أعرف إن كنتُ مسرورًا أم آسفًا.»

قال مانفريد بابتسامته الساخرة الغامضة: «ينبغي أن تكون مسرورًا؛ فقد برَّأت ...»

قال فالموث بطريقة جافة: «نعم، أعرف ذلك كله، ولكن الجزء الآخر هو ما أكرهه.»

«تقصد؟»

لم يُكمل مانفريد السؤال.

«أجل، إنها مهمة غير سارة، يا سيد مانفريد، وذلك هو الأمر البغيض بعد العمل الرائع الذي قمت به من أجل البلاد.»

أرجع مانفريد رأسه إلى الوراء، وضحك في استمتاع جامح.

قال المفتش بصراحة: «أوه، لا يُوجَد ما يستحق الضحك، فأنت في موقف لا تُحسَد عليه، وزير الداخلية قريب لرامون، وهو يكره حتى اسم رجال العدالة الأربعة نفسه.»

قال مانفريد في هدوء: «ومع ذلك يُمكنني أن أضحك؛ لأنني سأهرب.»

لم يكن ثمة تفاخر في الحديث، وإنما ثقة هادئة كان تأثيرها أن غضب الآخر.

قال بتجهم: «أوه، ستفعل، أليس كذلك؟ حسنًا، سنرى.»

لم يكن ثمة مهرب لمانفريد في مسافة العشر الياردات أو نحو ذلك بين باب زنزانته وعربة السجن. كان مقيدًا مع حارسَين، وشكل صفٌّ مزدوج من رجال الشرطة ممرًّا سار عبره. ولم يكن ثمة مهرب أيضًا من عربة السجن نفسِها التي تحركت في حماية مجموعة قوية من الخيالة الذين كانوا يُشهِرون سيوفهم. ولم يكن ثمة مهرب كذلك من البوابات الكئيبة لسجن واندزورث، حيث أحاط به بإحكام رجالٌ صامتون لا يلبسون ملابسَ موحدة وأخذوه إلى زنزانة لها ثلاثة أقفال.

ذات مرة في الليل، بينما كان نائمًا، أيقظه صوت الحارس الذي جاء لتغيير المناوبة، وسرَّه هذا.

لو أُتيحَت للمرء مساحة للكتابة، لجُمِّع كتاب كامل عن حياة مانفريد خلال الأسابيع التي قبع فيها في السجن في انتظار المحاكمة. كان يأتيه زوار. وكان مسموحًا بتراخٍ غير

عادي في هذا الشأن. كان فالموث يأمُل في أن يعثر على الرجلَين الآخرَين. واعترف لمانفريد بذلك برحابة صدر.

قال مانفريد: «يُمكنك أن تُريح نفسك من التفكير في تلك النقطة، فلن يأتيا.»

وصَدَّقَه مانفريد في قوله هذا.

قال مبتسمًا: «لو كنتَ مجرمًا عاديًّا، يا سيد مانفريد، كنت سأُلمح إليك باحتمالات أن تكون شاهد ملك إن أرشدت عن زميلَيك، لكنني لن أُسيء إليك بذلك.»

أذهلَته إجابة مانفريد.

فقد قال والبراءة على سيمائه: «بالطبع لن أفعل، فلو قُبِض عليهما، مَن بحق السماء الذي سيُرتب عملية هروبي؟»

لم تأتِ امرأة جراتس لرؤيته، وكان مسرورًا لذلك.

كان مدير السجن يزوره يوميًّا، ووجده لطيفًا على نحو ساحر. تكلما عن البلاد التي كان كلاهما يعرفها، وعن أشخاص كان كلاهما يعرفهم جيدًا بالدرجة نفسِها. وبطريقة تكتيكية تجنبا الحديث في الموضوعات الممنوعة. فقط …

قال مدير السجن، وهو يُنهي إحدى هذه الزيارات: «سمعت أنك ستهرب، أليس كذلك؟» كان رجلًا ضخم الجثة، كان في السابق رائدًا في المدفعية البحرية، وكان يأخذ أمور الحياة على محمل الجِد. لذلك لم يكن يُشارك فالموث في رؤيته للهروب المتوقع على أنه مزحة في توقيت سيِّئ.

أجاب مانفريد: «أجل.»

«من هنا؟»

بجدية هز مانفريد رأسه.

قال بجدية جديرة بالإعجاب: «لم تُوضَع ترتيبات للتفاصيل بعد.»

«لا أعتقد أنك تُحاول أن تستدرجني، فمن الخطورة الشديدة المزاحُ في هذا الأمر، ولكن سيكون أمرًا محرجًا لي إن هربت.» كان من الطبقة الاجتماعية نفسها التي ينتمي إليها السجين وكان يثق ثقة فائقة في كلمة الرجل الذي ناقش أمر الهروب من السجن بمرح كبير.

قال مانفريد، مظهرًا قليلًا من الاحترام: «أُدرك ذلك، وسأضع خططي وفقًا لذلك، بحيث يُوَزَّع اللوم بالتساوي.»

غادر مدير السجن الزنزانة، وهو لا يزال مقطبًا يُفكر. وعاد بعد بضع دقائق.

قال: «بالمناسبة، يا مانفريد. نسيت أن أُخبرك أن الكاهن سيزورك. إنه شاب مهذب جدًّا، وأعرف أنني لست بحاجة إلى أن أطلب منك أن تخذله بلطف.»

بهذا الافتراض الخفي بأن كليهما لا يُؤمن بأي دين، غادر أخيرًا.

فكر مانفريد في نفسه: «إن ذلك سيد ذو شأن.»

كان الكاهن متلهفًا بعصبية لأن يفتح مجالًا للحديث، وسعى، وسط الأحاديث المبتذلة التي أعقبت التبادل التقليدي للتحيات، إلى إيجاد ثغرة لإقحام سؤال لبق.

منحه مانفريد، الذي كان يُلاحظ خجله، الفرصة، وأصغى باحترام بينما كان الشاب يتحدث، بجدية، وإخلاص، ورجولة.

قال السجين بعد برهة: «لا، لا أظن، يا سيد سامرز، أن أنت وأنا لدينا آراء مختلفة تمامًا، إذا ما اختُصِرَت كلها في مسائل الإيمان والتقدير لصلاح الرب، لكنني وصلت إلى مرحلة أتجنب فيها وسم معتقداتي الخاصة بهذه العقيدة أو تلك، أو حصر الحدود غير المحدودة لإيماني في كلمات. أعرف أنك ستغفر لي وتُصدق أنني لا أقول هذا بدافع من أي رغبة في جرح مشاعرك، لكنني وصلت، أيضًا، إلى مرحلة من الإيمان الراسخ صرتُ فيها حرونًا أمام التأثير الخارجي. خيرًا كانت أم شرًّا، لا بد من أن أعتصم بالمفاهيم التي بنيتها من حياتي والدروس التي تعلمتها منها.

ثمة سبب آخر، وأكثر عملية لرفضي الإساءة إليك أو إلى أي كاهن آخر بإضاعة وقتكم، وهو أنني لا أنوي أن أموت.»

بهذا، كان الكاهن الشاب مجبرًا على أن يكون راضيًا. التقى بمانفريد مرارًا، وتكلما عن الكتب والناس والديانات الغريبة.

من منظور الحراس وأولئك المحيطين به، كان مانفريد مصدرًا للعجب باستمرار. لم يُرهقهم أبدًا بالحديث عن محاولته القادمة للهروب. ومع ذلك كان كل ما كان يقوله ويفعله يبدو قائمًا على قاعدة الإيمان الأساسية الوحيدة تلك: سوف أهرب.

اتخذ مدير السجن كل الاحتياطات للحيلولة دون تهريبه وإنقاذه من السجن. طلب تعزيزات من الحراس وحصل عليها، ولدى رؤية مانفريد لوجوه غريبة ضمن حراسه في صباح أحد الأيام أثناء التريُّض، مازح مديرَ السجن بعصبية مفرطة.

قال مدير السجن: «أجل، لقد ضاعفت عدد الطاقم. أنا أعتبر أنك صادق فيما قلته، هذا كل ما في الأمر، لا بد للمرء أن يتمسك بقوة بآخر فُتات باقية من إيمان المرء بالبشرية. أنت تقول إنك ستهرب، وأنا أُصدقك.» فكر لحظة ثم أضاف: «لقد درستك.»

«حقًّا؟»

قال مدير السجن، مشيرًا إلى السجن بحركة من يده: «ليس هنا، ولكن في الخارج، قرأت عنك وفكرت فيك وفهمتك على نحو غير واضح قليلًا، ذلك يجعلني متيقنًا من أن في جعبتك أمرًا ما عندما تتكلم بسهولة بالغة هكذا عن الهرب.»

أومأ مانفريد برأسه. أومأ برأسه مرات كثيرة مفكرًا، وشعر باهتمام جديد في الرجل الفظِّ المخادع.

«وبينما أنا أُضاعف الحراسة وأقوم بأمور من ذلك القبيل، أعرف في قرارة قلبي أن ذلك «الأمر» الذي في جعبتك ليس أمرًا متعلقًا بتفجير، ولا «أمرًا» ينطوي على قوة غاشمة، وإنما هو «أمر» عميق للغاية، تلك هي الطريقة التي فهمت بها الأمر.»

هز رأسه مودعًا، وأُغْلِق باب الزنزانة خلفه مع صوت خشخشة وطقطقة قوية للمفاتيح.

كان من الممكن أن يُحاكَم في الجلسات التالية لإحالته إلى الحبس المؤقت، لكن ممثل التاج طلب التأجيل، وبإبلاغه وسؤاله عما إذا كان يود إبداء أي اعتراض على ذلك المسار، أجاب بأنه ليس معترضًا على الإطلاق، بل كان ممتنًّا؛ لأن ترتيباته لم تكن قد تمت بعد، وعندما سألوه، مع علمهم بأنه كان قد رفض وجود محامٍ إجرائي ومستشار، عن ماهية الترتيبات التي أشار إليها، ابتسم بغموض وعرَفوا أنه كان يُفكِّر في خُطة الهرب الرائعة هذه. كان من المتوقع بالتأكيد أن تصل تلك التأكيدات المستمرة في نهاية المطاف إلى العامة عبر الصحف العامة، ومع أن عبارة «مانفريد يقول إنه سوف يهرب من سجن واندزورث» الواردة في العنوان الرئيسي لصحيفة «ميجافون» قد أصبحت «تصريحًا غريبًا لسجين» في صحيفة «التايمز»، فإن جوهر القصة كان متطابقًا، ولتكن على يقين من أنها لم تفقد أي شيء في السرد. استردت صحيفة أسبوعية تصدر يوم الأحد، ذات توزيع متراجع، عافيتها عندما زعمت أن مانفريد كان مجنونًا، ونشرت تقريرًا بطول عمود عن هذا «المجنون المسكين الذي يُثرثر بكلام غير مفهوم عن الحرية.»

وإذ كان مسموحًا لمانفريد أن يقرأ الصحف، رأى هذا الكلام، وأبقاه مستمتعًا طيلة يوم كامل.

كان الحراس الذين يُلازمونه يتغيرون يوميًّا، ولم يكن يُعين له الحارس نفسُه مرتَين حتى رأى مدير السجن عيبًا في الطريقة التي كانت تسمح بحارس على معرفة سطحية به فحسب، ولم يكن على علم بمدى نزاهته، أن يتصل اتصالًا وثيقًا بسجينه. جاء تهديد

هذا الخطر تحديدًا من الضباط الجدد الذين كانوا قد أُلحِقوا بالخدمة في سجن واندزورث لتدعيم الطاقم، وتحول مدير السجن إلى النقيض، واختير رجلان موثوق بهما، كانا قد تقدم بهما العمر في الخدمة، ليُؤدِّيا دور المراقبة الدائمة.

ذات صباح قال مدير السجن: «لن تتمكن من الحصول على المزيد من الصحف. لقد تلقيت أوامرَ من مركز القيادة، كانت توجد بعض «الإعلانات في ركن الاجتماعيات» التي بدت مريبة في صحيفة «ميجافون» في عددها الأخير أو نحو ذلك.»

قال مانفريد مبتسمًا: «لست أنا من وضعها.»

قال مدير السجن بنبرة جافة: «لا، ولكن ربما تكون قد قرأتها.»

قال مانفريد اليقظ: «ربما أكون قد فعلت.»

«هل فعلت ذلك؟»

لم يُجب مانفريد.

قال مدير السجن بابتهاج: «أظن أن ذلك ليس سؤالًا عادلًا. على أي حال، لا مزيد من الصحف. يُمكنك الحصول على كتب، أي كتب تُريدها في نطاق الحدود المسموحة.»

وهكذا حُرِم مانفريد من متعة قراءة الفقرات الصغيرة التي كانت تصف تحركات وأفعال العالم العصري. كان عندئذٍ ما يُهمه أكثر من بقية الصحيفة بأكملها هو فقط هذه التحركات والأفعال. وكانت تلك الأخبار التي تُتاح له من نوع سلبي وعن طريق مدير السجن. سأله: «أما زالت الصحف تدَّعي أنني مجنون؟» فأجاب: «لا.»

«هل تزعم أنني وُلِدتُ في برتاني، وابن لأبوَين متواضِعَي الحال؟»

«لا، توجد نظرية أخرى الآن.»

«أما زالوا يقولون إن اسمي الحقيقي هو إيزادور ابن فلان أو علان؟»

قال مدير السجن محرجًا: «يقولون الآن إنك تنتمي إلى عائلة نبيلة، وإن أميرة من الأسرة الحاكمة خيَّبَت أملك في سنٍّ مبكرة.»

قال مانفريد بصوت خافت: «يا للرومانسية!» تراجعت الرزانة التي كان يُضفيها عليه عمره، والتي كانت تفوق عمره، في وقت الانتظار ذاك. كاد أن يعود صبيانيًّا من جديد. كان لديه مَعين لا ينضب من خفة الظل التي حولت حتى قضايا محاكمته الجسيمة إلى موضوع للتسلية.

جاء لويجي فريزيني، المدير الشاب لمعهد الأنثروبولوجيا بروما، مسلحًا بسلطة وزير الداخلية.

وافق مانفريد على مقابلته ورحب به بقدر ما سمحت الظروف. لم يكن فريزيني منبهرًا بأهميته الشخصية، وكان سلوكه العملي ساميًا جدًّا. كانت له طريقة مرحة ومفعمة بالحيوية يُميل فيها رأسه على أحد جانبَيه عندما كان يُبدي ملاحظات، وذَكَّر مانفريد بتاجر خيول رُزِق قدرًا قليلًا من المعرفة، لكنه توَّاق لاكتشاف «النقاط» التي توافقت مع نظرياته التي تكونت لديه مسبقًا، مهما كان ما سيُواجه من أخطار. قال: «أود أن أقيس حجم رأسك.»

قال مانفريد ببرود: «يُؤسفني أن أقول إنني لا يُمكنني أن أسمح لك بذلك؛ من ناحية لأنني أعترض على الإزعاج الذي يُسببه ذلك، ومن ناحية أخرى لأن قياس حجم الرأس في علم الأنثروبولوجيا هو أمر عفا عليه الزمن تمامًا كفصد الدم في الجراحة.»

كان رد فعل المدير متعاليًا.

ابتدأ يقول: «يُؤسفني القول إنني لا يُمكنني أن أتلقى دروسًا في العلم ...»

قال مانفريد: «أوه، أجل يُمكنك، وستُصبح رجلًا أعظم إن فعلت. واقع الأمر أن أنطونيو دي كوستا وفيليكس هيديمان يتفوقان كلاهما عليك في مجالك، لقد كانت أُفْرودتك عن «ديناميكيات الدماغ» محض هراء فظيع.»

عندئذٍ احمرَّ وجه فريزيني غضبًا وهمهم بعبارات غير مترابطة وغادر الزنزانة، وبعد ذلك في غمار طيشه أجرى مقابلة مع صحيفة مسائية، وصف أثناءها مانفريد بأنه قاتل نمطي لديه سمات تطور الفص الجداري تلك، والمقترنة دومًا بالقتلة عديمي الرحمة. فُرِضَت على الصحيفة غرامة باهظة، لنشرها ما شَكَّل احتقارًا كبيرًا للمحكمة، وبطلب من الحكومة البريطانية، تلقى فريزيني توبيخًا، وفي نهاية الأمر حل محله ذلك المدعو دي كوستا الذي أتى على ذكره مانفريد.

كل هذه الأحداث شكَّلَت كوميديا الانتظار الطويل، وأما فيما يتعلق بالتراجيديا، فلم يكن ثمة أحداث من هذا القبيل.

قبل أسبوع من المحاكمة عبَّر مانفريد، في أثناء حديث، عن رغبة في الحصول على المزيد من الكتب.

سأله مدير السجن وهو يستعد لتدوين ملاحظة: «ماذا تُريد من الكتب؟»

قال مانفريد بكسل: «أوه، أي شيء؛ كتب عن الأسفار، أو عن السِّيَر الذاتية، أو عن العلم، أو الرياضة، أي شيء جديد يجري.»

قال مدير السجن، الذي لم يكن من المهتمين بالكتب والقراءة: «سأُحضر لك قائمةً. كتب الأسفار الوحيدة التي أعرفها هي هذان الكتابان الجديدان، «ثلاثة أشهر في المغرب» و«عبر غابة إيتوري.» أحدهما بقلم مؤلف جديد، ثيودور ماكس، هل تعرفه؟»

هز مانفريد رأسه بالنفي.

وقال: «ولكن سأُجربهما.»

سأله مدير السجن بفظاظة: «ألم يحن الوقت لتبدأ في التحضير لدفاعك؟»

قال مانفريد: «ليس لديَّ دفاع لأُقدمه؛ لذا لا يُوجد دفاع لأُحضِّر له.»

بدا الغيظ على مدير السجن.

سأله بخشونة: «أليست الحياة حلوة كفايةً لك، ليستحثك ذلك على أن تبذل جهدًا لإنقاذها؟ أم أنك ستستسلم دون كفاح؟»

قال مانفريد مجددًا: «سأهرب؛ ألم تتعب من سماعي أُخبرك عن سبب عدم بذلي جهد لإنقاذ نفسي؟»

قال مسئول السجن ساخطًا: «عندما تبدأ الصحف مجددًا في الكتابة عن نظرية «الجنون»، سأشعر بأقصى ميل إلى خرق القواعد وكتابة خطاب يُؤيد هذا الافتراض.»

قال مانفريد بمرح: «فلتفعل ذلك، وسأُخبرهم بأني أركض في أنحاء الزنزانة على أربعٍ أَعَضُّ أرجل الزوار.»

في اليوم التالي وصلت الكتب. ظلت ألغاز غابة إيتوري مجرد ألغاز، لكنه قرأ كتاب «ثلاثة أشهر في المغرب» (وكان مطبوعًا بأحرف كبيرة، وهوامش عريضة، وسعره ١٢ شلنًا، و٦ بنسات) بشغف من أوله إلى آخره، على الرغم من حقيقة أن النقاد بالإجماع شجبوه واصفين إياه بأنه أكثر كتاب ممل في هذا الموسم. وكان لذلك الأمر انعكاس غير لطيف على القيمة الأدبية لمؤلفه، ليون جونزاليس، الذي كان قد عمل صباح مساء لإعداد الكتاب للنشر، وكان يظل يكتب حتى وقت متأخر من الليل، بينما كان بويكارت، جالسًا على الطرف الآخر من المائدة، يُصحح المسودات التي لم يكن حبرها قد جف بعد عند وصولها من المطبعة.

الفصل الثالث عشر

«المؤمنون العقلانيون»

في غرفة الجلوس المؤثثة تأثيثًا أنيقًا في شقة في منطقة ويست كينسينجتون، جلس جونزاليس وبويكارت يُدخن كلٌّ منهما سيجارًا بعد تناول الطعام، وكلٌّ منهما منشغل بأفكاره. رمى بويكارت سيجاره في المدفأة وأخرج غليونه المصقول المصنوع من خشب الورد البري وعبأه ببطء من كيس ضخم. راقبه ليون بجفنَين نصف مفتوحَين، مُجَمِّعًا المعلومات القليلة التي كان قد التقطها من ملاحظته المستمرة.

قال: «إن العاطفة تطغى عليك، يا صديقي.»

نظر بويكارت إليه نظرة تساؤل.

«لقد كنت تُدخن دون وعي سيجارًا خاصًّا بجورج. وعندما دخنت نصف السيجار لاحظتَ أنَّك لم تكن قد نزعت الشريط المحيط بالسيجار، فبدأت في تمزيقه منتزعًا إياه. فعرفت من الشريط أنه من النوعية المفضلة لجورج، وبدأ ذلك تداعيًا للأفكار جعلك تشعر بأن السيجار مقزز، فرميته.»

أشعل بويكارت غليونه قبل أن يُجيب.

قال بصراحة: «كلام مثل ما تحتويه مجلة بوليسية صغيرة رخيصة. لقد كنتُ مدركًا أنه يخص جورج إن كنت تريد أن تعرف، وبدافع من ولائي المفرط له كنت أُحاول أن أُدخنه؛ وعندما فرَغت من تدخين نصفه، خَلُصتُ على مضض إلى أن للصداقة حدودَها؛ أنت الذي طغت عليك عاطفتك.»

أغمض جونزاليس عينَيه وابتسم. تابع بويكارت حديثه بخبث: «توجد مقالة نقدية أخرى في صحيفة «ذي إيفنينج ميرور تونايت»، هل رأيتها؟»

هز جونزاليس المستلقي رأسه نفيًا.

تابع بويكارت في قسوة: «تقول إن المؤلف الذي يستطيع أن يجعل المغرب مملة مثلما فعلتَ، يُمكن أن يجعل ...»

تمتم جونزاليس ناعسًا: «كفى.»

جلسا لعشر دقائق، وكان يكسر الصمت صوتُ تكتكة الساعة الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة والنفثات الرتيبة المتصاعدة من غليون بويكارت.

تكلم جونزاليس وعيناه مغمضتان قائلًا: «يبدو لي أن جورج في وضعية معلم وضع لتلميذَيه مسألة صعبة لحلها، واثقًا تمام الثقة من أنهما سيتجاوزان كل العقبات ويُقدمان الحل، رغم صعوبة الأمر.»

قال بويكارت: «ظننتك نائمًا.»

قال جونزاليس بهدوء: «لم أكن أكثر يقظة أبدًا مما أنا الآن. أنا فقط أُرتب التفاصيل في ذهني. هل تعرف السيد بيتر سويني؟»

قال بويكارت: «لا.»

«هو عضو في مجلس بلدة تشيلمسفورد. إنه رجل عظيم وصالح.»

لم يردَّ بويكارت.

«إنه أيضًا رئيس وواجهة حركة «الإيمان العقلاني»، التي ربما تكون قد سمعت بها.»

قال بويكارت مصرحًا، بفتور ولكن باهتمام: «لم أسمع بها.»

أوضح جونزاليس بنعاس: ««المؤمنون العقلانيون» هي حركة منبثقة عن الموحدين الجدد، والموحدون الجدد هم خليط متنوع من الناس الذين يشعرون بالظلم.»

تثاءب بويكارت.

تابع جونزاليس: «لدى المؤمنين العقلانيين مهمة في الحياة، ولديهم أيضًا فرقة نُحاسية، ومجموعة من أغانٍ هي محض هراء، يُؤلِّفها، ويطبعها، ويُوزعها مجانًا السيد بيتر سويني، وهو رجل يتمتع بالثراء والنفوذ.»

لزم الصمت بعد هذا طيلة دقيقة تقريبًا.

«مهمة في الحياة، وفرقة نُحاسية صاخبة لطيفة، يتلقى أعضاؤها رواتب شهرية، بحق القديس بيتر.»

أدار بويكارت رأسه ونظر إلى صديقه بفضول.

سأله: «علامَ كل هذا؟»

تابع جونزاليس برتابة: ««المؤمنون العقلانيون» هم تلك النوعية من الناس التي كانت طيلة الزمان — وما زالت — أقلية للأبد. إنهم يرفضون أمورًا؛ يرفضون الحانات، ويرفضون القاعات الموسيقية، ويرفضون أكل اللحم، والتطعيم، وعقوبة الإعدام.» وكررها بصوت خفيض.

تريث بويكارت.

منذ سنوات مضت كان يُنْظَر إليهم كمصدر إزعاج، فكان المشاغبون يفضون اجتماعاتهم؛ ولاحقتهم الشرطة لإعاقتهم لعملها، وزُجَّ ببعضهم في السجن وخرجوا من جديد، وقد قُدِّموا بهالات جُدِّدَت حديثًا في وجبات إفطار يُقَدَّم فيها اللحم، يترأسها بيتر.

«الآن تجاوزوا ما تعرضوا له من اضطهاد — فالاستشهاد لا يُشترى بثمن بخس — وهم مؤسسة مثل ماكينة الغزل الآلية والاشتراكية العصرية — وهو ما يُثْبِت أنه إذا ظللت تفعل أمورًا كثيرة بما يكفي وباستمرار، قائلًا بصوت عالٍ: «من أجل الصالح العام»، سيصدقك الناس ويصدقون تقييمك، وسيتسامحون معك.»

كان بويكارت عندئذٍ يُنصت بانتباه.

«هؤلاء الناس يتظاهرون، إن بيتر ميسور الحال حقًّا، ولديه الكثير من الممتلكات رديئة الحال، واجتذب سيدات وسادة أثرياء آخرين إلى الحركة. إنهم يتظاهرون في جميع المناسبات. لديهم أناشيد — بيتر يدعوها «أناشيد»، وهو اختلاف لطيف، يُضفي عليهم صبغة شبه علمانية — لهذه اللحظات الاحتفالية، أناشيد من أجل بلبلة القائمين بالتطعيم، وآكلي الحيوانات، وما إلى ذلك. لكن أكثر «قداسات الاحتجاج» التي يقومون بها إتقانًا، وكمالًا على نحو جميل، هو الذي يُرتب خصيصى للتعبير عن فزعهم واشمئزازهم من عقوبة الإعدام.»

كان توقفه عن الكلام طويلًا؛ حتى إن بويكارت تدخل بنفاد صبر ...

«وماذا بعد؟»

قال ليون مفكرًا: «كنت أحاول أن أستحضر النشيد. إن أسعفتني الذاكرة بأحد مقاطعه يقول ...

تعالوا وقاتلوا القتال النبيل،
لإلغاء هذه الفظاعة؛
ارتكاب فعل شنيع لا يُصَحِّح فعلًا شنيعًا،
وكذلك القتل الشرعي.»

قال جونزاليس بتسامح: «البيت الأخير غامض إلى حد التفاهة، لكنه يُعَبِّر بإيحاء رقيق عن المغزى الأخلاقي من القصيدة. تحوي القصيدة بيتًا آخر غائبًا الآن عن ذاكرتي، ولكن لعلي أتذكره لاحقًا.»

قام فجأة من رقدته وجلس وانحنى إلى الأمام، واضعًا يده على ذراع بويكارت.

«عندما كنا نتكلم عن، خطتنا منذ بضعة أيام تكلمتَ عن أعظم خطر يُواجهنا، الشيء الوحيد الذي لا يُمكننا تجنبه. ألا يبدو لك أن «المؤمنين العقلانيين» يُقدمون حلًّا بحملاتهم المشاكسة، ومظاهراتهم، وفرقتهم النحاسية، وأناشيدهم السخيفة؟»

أخذ بويكارت يسحب بانتظام أنفاسًا من غليونه.

قال: «أنت رجل رائع، يا ليون.»

سار ليون إلى الدولاب، وفتحه، وأخرج حافظة أوراق مثل تلك التي يحمل فيها الرسامون رسوماتهم. فك الأربطة وقلَّب في الصفحات المنفصلة. كانت مجموعة كلفت رجال العدالة الأربعة وقتًا وقدرًا كبيرًا من المال.

سأل بويكارت: «ماذا ستفعل؟» بينما جلس الآخر، خالعًا معطفه، ومثبتًا نظارته الأنفية، أمام مخطط كبير أخرجه من حافظة الأوراق. التقط ليون قلم رسم ذا سنٍّ دقيقة من المائدة، وفحص طرفه بعين فنان ماهر، وبحرص انتزع سدادة زجاجة حبر مهندس معماري.

تساءل: «هل شعرت يومًا برغبة في رسم جزر خيالية؟ مسميًا خلجانك، ومانحًا أسماءً لرءوسك البحرية، ومنشئًا مدنًا بجرة من قلمك، ورافعًا جبالًا عظيمة «بضربات» متعرجة من ريشتك؟ لأنني سأفعل شيئًا مثل ذلك، أشعر بأنني في تلك الحالة التي يُوصَف فيها الصبية ببلاغة بأنهم «يُجربون»، ولديَّ الرغبة في أن أزعج سكوتلاند يارد.»

اكتشف فالموث أمر هذَين الرجلَين في اليوم السابق على المحاكمة. وتحريًّا للدقة، وُضِع هذا الاكتشاف في طريقه. فقد أبلغ مالك نُزُلٍ في شارع جاور أن رجلَين غامضَين استأجرا غرفتَين. وقد وصلا في ساعة متأخرة من الليل ومعهما حقيبة سفر عليها ملصقات أجنبية متنوعة؛ وحرَصا على إبقاء وجهَيهما في الظلمة، وكان من الواضح أن لحية أحدهما مزيفة. بالإضافة إلى ذلك فقد دفعا أجرة إقامتها مقدمًا، وتلك كانت أغرب ملابسة مُدِينة لهما من كل الملابسات الأخرى. تخيل مالكًا لنُزُل، يُرشدهما لغرفتَيهما، وهو يرتعد من الشك الكبير الذي يُساوره، مستحضرًا كامل قدراته على التظاهر، مبالغًا في إظهار عدم الاكتراث، ويُريد بفارغ الصبر أن ينقل الخبر إلى مركز الشرطة المجاور. فقد كان أحدهما يدعو الآخر ليون، وتبادلا الحديث بهمس مسموع عن «مانفريد المسكين» في يأس.

خرجا معًا، قائلَين إنهما سيعودان بعد منتصف الليل بقليل، معطِيان تعليمات بإشعال نار المدفأة في غرفتهما؛ لأن الجو في الليل كان ماطرًا وقارسًا.

بعد نصف ساعة كانت القصة بكاملها تُروى لفالموث عبر الهاتف.

كان تعليقه هو أن «هذا أروع من أن يُصَدَّق»، لكنه أعطى تعليمات. بحلول منتصف الليل كان النُّزُل مطوقًا كما يجب، لكن ببراعة بحيث ما كان المار العادي سيشك مطلقًا في ذلك. في الثالثة صباحًا، جزم فالموث بأن الرجلَين قد تلقَّيا تحذيرًا، واقتحموا بابَي غرفتَيهما ليفتشوهما. كان الشيء الوحيد الذي عثروا عليه هو حقيبة السفر. كان كل ما عثروا عليه هو بعض قطع الثياب، التي تحمل بطاقة خياط باريسي، حتى عرف فالموث، وهو يُفتش قاع حقيبة السفر، أنه قاع زائف.

قال: «مرحى!» وكان الهتاف، في ضوء أهمية اكتشافه، معتدلًا في قوته؛ إذ إنه وقع على المخططات، التي كانت مطوية بعناية، ومُخفاة بمكر. فحصها فحصًا سريعًا وأطلق صفيرًا. ثم طوى تلك المخططات ووضعها بحرص في جيبه.

أعطى أوامره قائلًا: «أبقوا المنزل تحت الملاحظة. لا أتوقع أن يعودا، لكن إن فعلا، فاقبضوا عليهما.»

ثم انطلق عبر الشوارع الخالية بسرعة كتلك التي كان بوسع سيارة أن تنطلق بها حاملة إياه، وأيقظ رئيس الشرطة من نوم عميق.

تساءل وهو يقود المحقق إلى غرفة مكتبه: «ما الأمر؟»

أطلعه فالموث على المخططات.

رفع رئيس الشرطة حاجبَيه، وأطلق صفيرًا.

قال فالموث معترفًا: «ذلك ما قلته.»

بسط رئيس الشرطة المخططات على طاولة كبيرة.

قال رئيس الشرطة: «واندزورث، وبينتوفيل وريدينج. مخططات، ومخططات جيدة بدرجة ملحوظة، للسجون الثلاثة جميعها.»

أشار فالموث إلى الكتابة التي كانت بخط يدوي تصعب قراءته والخطوط المرسومة باعتناء بواسطة مسطرة والتي رُسِمَت بحبر أحمر.

قال رئيس الشرطة: «نعم، أراها.» وقرأ ما كان مكتوبًا: «سُمك الجدار ٣ أقدام، ديناميت هنا، حارس في الخدمة هنا، يُمكن إطلاق النار عليه من الجدار، المسافة حتى دخول ساحة السجن ٢٥ قدمًا؛ زنزانة المحكوم عليه بالإعدام هنا، الجدران ٣ أقدام، نافذة واحدة، عليها قضبان على ارتفاع ١٠ أقدام و٣ بوصات من الأرض.»

«لقد خططوا للأمر على نحو ممتاز، أي سجن هذا، واندزورث؟»

قال فالموث: «الأمر نفسه في حالة السجنَين الآخَرين، يا سيدي. لقد توصلوا إلى المسافات، والارتفاعات والمواقع؛ لا بد أنهم قد استغرقوا سنوات للوصول إلى هذه المعلومات.»

قال رئيس الشرطة: «ثمة أمر واحد جلي، أنهم لن يفعلوا شيئًا إلا بعد المحاكمة، فكل هذه المخططات رُسِمَت وكان الهدف فيها هي زنزانة المحكوم عليه بالإعدام.»

في الصباح التالي تلقى مانفريد زيارة من فالموث.

قال: «عليَّ أن أُخبرك، يا سيد مانفريد، أن لدينا في حوزتنا تفاصيلَ كاملة عن عملية تحريرك المزمعة.»

بدا مانفريد متحيرًا.

«الليلة الماضية هرب صديقاك في اللحظة الأخيرة، تاركَين وراءهما مخططات مفصلة ...»

سأله مانفريد، بابتسامته الخاطفة: «مكتوبة؟»

قال فالموث: «مكتوبة. أعتقد أن من واجبي أن أُخبرك بهذا؛ لأنه يبدو أنك تعتمد أكثر مما ينبغي على ما هو عمليًّا أمر مستحيل، وهو الهروب من السجن.»

أجاب مانفريد بشرود ذهن: «نعم، ربما يكون ذلك صحيحًا، أظن أنك قلت إنها مكتوبة.»

«أجل، كل شيء كان محسوبًا.» واعتقد أنه قد قال ما يكفي، وغيَّر الموضوع. «ألا تظن أن عليك أن تُغير رأيك وتُوَكِّل محاميًا.»

قال مانفريد ببطء: «أظن أنك على حق. أيُمكنك أن تُرتب لي مقابلة مع عضو في مؤسسة محترمة؟»

قال فالموث: «بالتأكيد، مع أنك قد تركت حقك في الدفاع ...»

قال مانفريد بمرح: «أوه، إنه ليس من أجل دفاعي؛ كل ما في الأمر أنني يجب أن أضع وصية.»

الفصل الرابع عشر

في محكمة أولد بيلي

كان من استطاعوا دخول محكمة أولد بيلي هم أصحاب الامتيازات؛ أشخاص بحوزتهم بطاقات دخول حصلوا عليها من مأموري تنفيذ الأحكام، ومراسلون صحفيون، وممثلون عِظام، ومؤلفون ناجحون جدًّا. أعلنت الطبعات الأولى من الصحف المسائية عن وصول هذه الشخصيات الأخيرة من المشاهدين. اكتفى الحشد خارج المحكمة بمناقشة ماضي السجين ومستقبله المحتمل.

كانت صحيفة «ميجافون» قد أحرزت فوزًا كبيرًا مجددًا؛ إذ نشرت تفاصيل وصية السجين بالكامل. وأشارت بطرق متنوعة إلى هذه الوصية في أعمدتها التحريرية بوصفها «وثيقة مذهلة» و«قصاصة غير عادية». كانت استثنائية نظرًا للقيمة المالية الموصى بها، ولوفرة الموروثات المذكورة فيها على السواء.

كان المبلغ المتروك يُقارب نصف مليون جنيه، أوصى منه بمبلغ ٦٠٠٠٠ جنيه إلى «الطائفة المعروفة باسم «المؤمنين العقلانيين» من أجل تعزيز حملتهم ضد عقوبة الإعدام»؛ إرث مذهل إذا ما تذكرنا أن تنظيم رجال العدالة الأربعة لم يعرف إلا عقوبة واحدة فقط للأشخاص الذين أدانهم التنظيم.

قال المحامي بعدما وُثِّقَت الوصية: «بالطبع سترغب في أن يبقى هذا في طي الكتمان.»

قال مانفريد: «على الإطلاق؛ في الواقع أعتقد أنه كان من الأفضل أن تُسَلِّم نسخة لصحيفة «ميجافون».»

سأله المحامي مذهولًا: «هل أنت جادٌّ فيما تقول؟»

قال الآخر: «جادٌّ تمامًا.» وابتسم مضيفًا: «من يعرف، فربما تُؤثر على الرأي العام لـ... لصالحي.»

وهكذا أصبحت الوصية الشهيرة ملكية عامة، وعندما ارتقى السلالم الخشبية الضيقة التي قادت إلى قفص اتهام محكمة أولد بيلي، وأصبح أمام قاعة المحكمة المزدحمة، كان تصرفه الغريب الأخير هذا هو محورَ نقاش همهمات المحتشدين في قاعة المحكمة.

«صمتًا!»

أخذ ينظر حول قفص الاتهام الكبير بفضول، وعندما أشار أحد الحراس إلى المقعد، أومأ برأسه، وجلس. قام واقفًا عندما تُلي قرار الاتهام.

سُئِل: «هل أنت مذنب أم غير مذنب؟» وأجاب باقتضاب:

«لن أُقدِّم دفعًا.»

كان مهتمًّا بالإجراءات. كان أكثر ما أثار اهتمامه هو القاضي ذو الحُلة القرمزية بوجهه المسن الذي ينم عن حكمة، ومظهره المتزن غير المعتاد. مأمورو تنفيذ الأحكام الجادون الذين كانوا يلبسون معاطف من الفراء، ورجل الدين الذي جلس واضعًا ساقًا على الأخرى، والصفوف الثلاثة من المحامين الذين كانوا يضعون شعورًا مستعارة، والمقعد الطويل الذي يضم المراسلين الكادحين وهمسات تعليماتهم الحادة وهم يُمررون نسختهم إلى الصبية المنتظرين، وقوة الشرطة الشديدة البأس التي كانت تُنظم قاعة المحكمة؛ كل هؤلاء كان يُوليهم اهتمامًا خاصًّا.

كان رئيس هيئة الادعاء رجلًا ضئيل الحجم له وجه قوي صارم وأداء درامي مقنع. كان يبدو أن ثمة رغبةً في التعامل بإنصاف مع الأمور تُسيطر عليه طوال الوقت، متحريًا الإنصاف مع ممثل التاج ومع السجين. قال إنه لم يكن مستعدًّا لبذل جهد في نقاط معينة سبق أن عُرِضَت في تحقيق محكمة الشرطة، أو أن يُقنع المحلَّفين بأن المتهم لم يكن لديه أي صفات إيجابية.

ما كان حتى ليقول إن الرجل الذي قُتِل، والذي كان مانفريد متهمًّا بقتله، كان مواطنًا من مواطني الدولة من ذوي الشأن أو المكانة. التزم الشهود، الذين كانوا قد تقدموا ليشهدوا بما يعرفونه عن المتوفَّى، صمتًا منذرًا بسوء العاقبة فيما يتعلق بنقطة أخلاقه الشخصية. كان على أتم استعداد لقَبول القول إنه كان رجلًا سيئًا، ذا تأثير شرير على شركائه، وذا تأثير مفسِد على الشابة التي كانت تعمل تحت إمرته، وإنه كان منتهكًا للقوانين، ووغدًا، وفاسقًا.

قال ممثل الادعاء بطريقة مؤثرة: «ولكن أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين، إن مجتمعًا متحضرًا كمجتمعنا قبل نظامًا — مع ما قد يكون عليه من تعقيد ونقص —

يُعاقَب بواسطته الأثيم والشرير. فصاغ جيل بعد جيل من المشرعين درجات من العقوبات وعدَّلَها لمواجهة كل جنوح معروف. لقد أنشأ المجتمع نظامه بجهد شديد، مقدمًا تضحيات وطنية من أجل المبادئ المتعلقة بذلك النظام. لقد انتزع بدمه مواثيق حرية عظيمة؛ حرية قانون يتولى إدارتَه مسئولوه المختارون ويُطَبَّق انطلاقًا من روح المساواة البريئة.»

وهكذا مضى يتحدث عن رجال العدالة الأربعة الذين وضعوا آلية للعقاب، وجنحوا عن القانون وتخطَّوه؛ وأصدروا حكمهم ونفذوه بمعزل عن القوانين القائمة وفي تحدٍّ لها.

مجددًا أقول، إنني لن أُلزِم نفسي بالإقرار بأنهم عاقبوا على نحو غير قانوني؛ لأنه بالأدلة التي كانت بحوزتهم ضد ضحاياهم، كان موظفو إنفاذ القانون التابعون للتاج سيترددون في الشروع في تحريك دعوى ضدهم. إذا كان قد أسعدهم أنهم نظروا نظرة مجردة لهذه الجريمة أو تلك، وقالوا إن هذا الرجل أو ذاك مستحق للعقاب، فإننا، نحن ممثلي القانون القائم، ما كنا لنستطيع أن نُشكك لحظة في عدالة منطقهم. لكننا دخلنا في تضارب حول مسألة ملاءمة العقوبة، وحول المسألة الأخطر المتعلقة بحق الفرد في إيقاع تلك العقوبة، والذي يُؤدي إلى مثول هذا الرجل في قفص الاتهام بتهمة قتل.»

طوال الخطبة الافتتاحية، مال مانفريد بجذعه إلى الأمام، متابعًا كلمات ممثل الادعاء.

مرة أو مرتَين أومأ برأسه، كما لو كان متفقًا مع المتحدث، ولم يُظْهِر مطلقًا ولا حتى مرة واحدة أي علامة اعتراض.

جاء الشهود واحدًا تلو الآخر. الشرطي مجددًا، والطبيب، والرجل الفصيح الأحول. وكلما كان ممثل الادعاء ينتهي من استجواب واحد منهم، كان يسأل مانفريد إن كان يُريد أن يطرح أي سؤال، لكن مانفريد كان يهز رأسه نفيًا.

سأل القاضي الشاهد الأخير: «هل رأيت المتهم من قبل؟»

قال الشاهد مؤكدًا: «لا، يا سيدي، لم أرَه من قبل. ليس لديَّ ما أقوله ضده.»

بينما كان يُغادر منصة الشهادة، قال بصوت مسموع:

«ما زال يوجد ثلاثة آخرون. لا أرغب في أن ألقى حتفي.» ووسط الضحك الذي أعقب هذا الإبداء للحذر، استدعاه مانفريد بحدة.

قال: «إذا لم يكن لديك اعتراض، يا سيدي؟»

أجاب القاضي بلباقة: «لا اعتراض على الإطلاق.»

قال: «لقد ذكرت شيئًا عن ثلاثة آخرين. هل تُلْمِح إلى أنهم قد هدَّدوك؟»

قال الرجل الضئيل الحجم بحماس: «لا، يا سيدي، لا!»

قال مانفريد مبتسمًا: «لا يُمكنني أن أسأل ممثل الادعاء، لكني ألفت انتباهه إلى أنه لا يوجد ما يُشير إلى حدوث ترهيب للشهود في هذه القضية.»

سارع ممثل الادعاء إلى القول: «لم يحدث أي ترهيب على الإطلاق؛ من حقك أن تُدليَ بتلك الإفادة.»

أشار السجين إلى منصة الشهادة قائلًا: «ليس لدينا ضد هذا الرجل أي شيء من شأنه أن يُبرر فعلنا. إنه مهرب للسكَّر، ويُتاجر في المسروقات، لكن القانون سيتولى أمره.»

قال الرجل الضئيل الحجم في المقصورة، وقد علا وجهَه الشحوبُ وأخذ يرتعد: «هذا كذب؛ هذا تشهير.»

ابتسم مانفريد مجددًا وصرفه بإشارة من يده.

كان من الممكن للقاضي أن يُوبخ السجين على اتهامه الذي لم يكن له صلةٌ بالقضية، ولكنه سمح بتجاوز الواقعة.

كان الادعاء على وشك إنهاء عرض القضية عندما جاء أحد موظَّفي المحكمة إلى جانب القاضي، ومال عليه، وبدأ حديثًا هامسًا معه.

بعد أن غادر الشاهد الأخير، أعلن القاضي رفع الجلسة، واستُدعي ممثل الادعاء إلى غرفة سيادته الخاصة.

في الزنازين أسفل المحكمة، تلقى مانفريد تلميحًا بشأن ما هو آتٍ وبدا متجهمًا.

بعد فترة الاستراحة، وعند جلوس القاضي على مقعده، خاطب المحلفين قائلًا:

«في قضية تُظهِر السمات غير المعتادة التي تُميز هذه القضية، من المتوقع أن تحدث وقائعُ ذات طبيعة تكاد تكون غير مسبوقة. غير أن الملابسات التي ستُقَدَّم في ظلها الأدلة الآن ليست غير مسبوقة تمامًا.» وفتح كتابَ قانون سميكًا أمامه عند موضعٍ مُعَلَّمٍ بقصاصة ورق. «هنا في الحكم في قضية الملكة ضد فورسيث، وقبلها، في قضية الملكة ضد بيرنادر، وحتى في حكم أسبق واستُشهِد به في كل هذه الأحكام، وهو حكم الملك ضد السير توماس ماندوري، لدينا قضايا متماثلة.» وأغلق الكتاب.

«مع أن المتهم لم يُبدِ تلميحًا برغبته في استدعاء شهود نيابةً عنه، فقد تطوع أحد السادة لتقديم دليله. وهو يود أن يُحْجَب اسمه، وثمة ظروف خاصة تفرض عليَّ أن أُلبي طلبه. كونوا على ثقة، أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين، أنني مطمئن إلى هوية الشاهد، وكذلك إلى أنه من كل النواحي أهل للتصديق.»

وأومأ برأسه إلى أحد الموظفين، وعبر باب غرفة القاضي سار شاب إلى منصة الشهادة. كان يرتدي معطفًا طويلًا ضيقًا، وكان يضع قناعًا على الجزء العلوي من وجهه.

مال قليلًا على الحاجز، ناظرًا إلى مانفريد بابتسامة خفيفة على فمه الحسن الشكل، واستوقفته عينا مانفريد.

سأله القاضي: «هل جئت لتتحدث نيابةً عن المتهم؟»

«أجل، يا سيدي.»

كان السؤال التالي هو السؤال الذي أثار شهقة اندهاش عبر قاعة المحكمة المزدحمة.

«هل تدعي أنك مسئول عن أفعاله بالدرجة نفسها؟»

«أجل، يا سيدي!»

«هل أنت، في الواقع، عضو في التنظيم المعروف باسم رجال العدالة الأربعة؟»

«أجل.»

كان يتحدث بهدوء، ولم يُؤثر فيه الاضطراب الذي سرى في القاعة على أثر هذا الاعتراف.

قال القاضي، مراجعًا ورقة أمامه: «أنت تزعم، أيضًا، أنك شاركت في مشاوراتهم، أليس كذلك؟»

«أجل، أزعم ذلك.»

كان ثمة توقف طويل بين الأسئلة؛ لأن القاضيَ كان يتحقق من الإجابات وكان ممثل الادعاء منكبًّا على الكتابة.

«وتقول إنك تتفق مع أهدافهم وكذلك مع وسائلهم، أليس كذلك؟»

«تمامًا.»

«هل عاونتَ في تنفيذ حكمهم؟»

«فعلت ذلك.»

«وهل منحت الأمر موافقتك؟»

«أجل.»

«وهل تُصرح بأن أحكامهم كانت مدفوعة بشعورٍ عالٍ بواجبهم ومسئوليتهم نحو الإنسانية؟»

«ذلك هو ما قلتُه حرفيًّا.»

«وأن الرجال الذين قتلوهم كانوا يستحقون الموت؟»

«أنا مقتنع بذلك.»

«هل تُصرح بهذا نتيجةً لمعرفتك الشخصية وتحرياتك؟»

«أُصرح بهذا بِناءً على معرفتي الشخصية في حالتَين، وبناءً على تحريات قمت بها بنفسي وشهادة مستقلة من سلطة قانونية عليا.»

قال القاضي: «وهو ما يقودني إلى سؤالي التالي؛ هل سبق أن أوكلت إلى لجنة ما التحريَ في كل ملابسات الحالات المعروفة المتورط فيها تنظيم رجال العدالة الأربعة؟»

«أجل، فعلت.»

«هل كانت مؤلفة من رئيس محكمة عليا لدولة أوروبية معينة، وأربعة محامين جنائيين بارزين؟»

«كانت كذلك.»

«وهل ما قلتَه هو جوهر إنشاء تلك اللجنة؟»

«أجل.»

أومأ القاضي برأسه بجدية ووقف المدعي العام ليستجوب الشاهد.

قال: «قبل أن أُوجه لك أي سؤال، لا يسعني إلا أن أُعرب عن اتفاقي التام مع سيادته بشأن سياسة السماح بالإبقاء على هُويتك مستترة.» فانحنى له الشاب.

قال ممثل الادعاء: «والآن، دعني أوجه لك السؤال التالي؛ منذ متى وأنت مرتبط بتنظيم رجال العدالة الأربعة؟»

قال الآخر: «منذ ستة أشهر.»

«إذن فأنت في الحقيقة لست في وضع يُمَكِّنُك من تقديم أدلة فيما يتعلق بوقائع هذه القضية، التي أُذكرك بأنه قد مر عليها خمسة أعوام.»

«باستثناء أدلة اللجنة.»

«دعني أُوجه لك هذا السؤال التالي، ولكن يتعين عليَّ أن أُخبرك بأنك لست ملزمًا بالإجابة إلا إذا شئت، هل أنت مقتنع بأن رجال العدالة الأربعة كانوا مسئولين عن تلك الفاجعة؟»

قال الشاب على الفور: «لا شك عندي في هذا.» «هل يوجد أي شيء يُمكن أن يجعلك تشك في هذا؟»

قال الشاهد مبتسمًا: «أجل، إذا ما أنكره مانفريد، فلن أشك في هذا فحسب، بل سأكون على يقين تام من براءته.»

«أتقول إنك تُوافق على وسائلهم وكذلك أهدافهم؟»

«أجل.»

«دعني أفترض أنك كنت رئيس شركة كبرى تتحكم في ألف من العاملين، مع وجود قواعد ولوائح من أجل توجيههم ومعيار للغرامات والعقوبات للحفاظ على الالتزام. وافترض أنك وجدت أن واحدًا من أولئك العاملين قد نَصَّب نفسه حَكَمًا على القيادة، وفرض على قواعدك مجموعة قوانين من عنده.»

«ما سؤالك؟»

«سؤالي هو ماذا كان سيُصبح موقفك من ذلك الرجل؟»

«إذا كانت القواعد التي استحدثها حكيمة وضرورية فسأدمجها في لوائحي.»

«دعني أفترض حالة أخرى. افترض أنك كنت تحكم إقليمًا، وتُطبق القوانين التي …»

قاطعه الشاهد قائلًا: «أعرف ما ستقوله، وإجابتي هي أن قوانين كثيرة من قوانين البلد هي بمثابة أسوار وُضِعَت لمصلحة المجتمع. ولكن مهما حاولت، فستظل الثغرات والفجوات موجودة، وبعض الرجال سيفعلون ما يحلو لهم؛ إما باستغلال تلك الثغرات، أو بالمرور بجرأة عبر تلك الفجوات.»

«وهل ستُرحب بوجود صورة غير رسمية من العدالة تضطلع بتطبيق نوع من الرادع الأخلاقي؟»

«سأُرحب بوجود عدالة نزيهة.»

«إذا ما قُدِّمَت لك على صورة اقتراح مجرد، هل ستقبله؟»

تريَّث الشاب قبل أن يُجيب.

ثم قال: «من الصعب أن يُكَيِّف المرء عقله مع ما هو مجرد، مع وجود تلك الأدلة الملموسة على فاعلية نظام رجال العدالة الأربعة جليةً أمام المرء.»

قال ممثل الادعاء: «ربما يكون ذلك صحيحًا.» وأفاد بأنه قد انتهى من سؤال الشاهد.

تردد الشاهد قبل أن يُغادر منصة الشهادة، ونظر إلى السجين، لكن مانفريد هز رأسه مبتسمًا، وغادر الشاب النحيل قاعة المحكمة من حيث أتى.

بعد مغادرته أخذ الحاضرون يتهامسون فيما بينهم في أحاديث جانبية جامحة ساعد في مرورها بلا ضابط أن القاضيَ وممثل الادعاء أخذا يتشاوران بجدية عبر منصة القضاء.

عَبَّر جاريت، الذي كان جالسًا بالأسفل وسط الصحفيين، عن الفكرة المبهمة التي كانت حاضرة في أذهان جميع من كانوا في قاعة المحكمة.

قال مخاطبًا جيمس سنكلير من صحيفة «ذا ريفيو»: «ألا ترى معي أن هذه المحاكمة زائفة جدًّا؟ ألا تفتقد جوهرَ المحاكمة الجنائية، كآبتها وهولها؟ ها هو شخص قد قُتِل

ولم يتحدث ممثِّل الادعاء ولو مرة قائلًا: «هذا الرجل المسكين قُتِل في مقتبل العمر» أو قال أي شيء جعلك تنظر إلى السجين لترى رد فعله. إنه نقاش فلسفي في نهايته مشنقة.»

قال جيمس: «فعلًا.»

قال جاريت: «لأنهم إذا توصلوا إلى أنه مذنب، فلا بد أن يُعْدَم. لا شك في ذلك؛ فلو لم يشنقوه، فسينهار الدستور البريطاني، والماجنا كارتا، واجتماع مجلس فورمس، وبضعة أمور أخرى كان بيل سيدون يتشدَّق بها.»

كانت إشارته الخالية من أي احترام تتعلق بالخطبة الافتتاحية للمدعي العام. والآن وقف السير ويليام سيدون من جديد، مبتدئًا في توجيه حديثه الختامي إلى المحلفين. بذل جهده في الحديث عن الدليل الذي كان قد قدمه، وعن رفض السجين الطعن في صحة هذا الدليل، وبطريقة تقليدية تتبع خطوةً بخطوة النقاطَ التي قيلت ضد الرجل الموضوع في قفص الاتهام. تطرق إلى ظهور الرجل المقنَّع على منصة الشهادة. فمع أن الأمر قد لا يكون ذا قيمة، فإنه كان يستحق أن يأخذوه في الاعتبار، لكنه لم يُؤثر على القضية المعروضة أمام المحكمة. فالغرض من وجود المحلفين كان التوصل إلى قرار يتماشى مع القانون القائم، وليس كما لو لم يكن القانون موجودًا على الإطلاق، أي إن واجبهم كان إنفاذ القانون، وليس استحداثه. وأضاف أن الفرصة ستُتاح للسجين ليتحدث دفاعًا عن نفسه. كان مستشار التاج قد تنازل عن حقه في إلقاء الكلمة الأخيرة. لو أن السجين قد تحدث، كانوا سيُصغون إليه بإنصات، مانحين إياه ميزة أي شك يُمكن أن يكون قائمًا في أذهانهم. لكن لم يكن بوسعه أن يفهم، ولا أن يتخيَّل على نحو معقول، أن يكون بوسع المحلفين أن يتوصلوا إلى أي قرار غير قرار واحد.

بدا لوهلة أن مانفريد لم يكن ينوي أن يستفيد من الفرصة؛ لأنه لم يُبدِ أي بادرة، ثم قام واقفًا، وأسند يدَيه على الحافة التي كانت أمامه:

قال: «سيادة القاضي.» واستدار بطريقة تنم عن الاعتذار إلى المحلفين، وأضاف: «والسادة المحلفين.»

كان السكون يعم قاعة المحكمة حتى إنه كان بوسعه أن يسمع صوت أقلام المراسلين وهم يكتبون، وأتت ضوضاء غير متوقعة من الشارع بالخارج.

قال: «أشك في أنه سيكون من الحكمة أن أتكلم وأشك أيضًا في أنَّ ثمة قيمةً لكلامي، ولا أُلْمِح بذلك إلى أنكم قد اتخذتم قراركم بأنني مذنب دون أسباب جيدة للغاية ومقنعة.»

قال: «أنا مدين للمدعي العام.» وانحنى له، وتابع: «لأنه أعفاني من سخافات الحديث تلك التي خشيتُ أن تُفسد هذه المحاكمة. لم يُحاول أن يُضفيَ البراءة على الرجل الذي

قتلناه، ولا أن ينفي عنه جرائمه الفظيعة والخسيسة. على العكس من ذلك، أوضح الموقف الدقيق للقانون بشأني، وأنا متفق اتفاقًا كاملًا مع كل ما قاله. إن عدم مساواة القانون أمر معروف للجميع، وأعترف باستحالة تعديل القانون، حسب تكوين المجتمع، بحيث تتناسب العقوبات مع جرائم كتلك التي تعاملنا معها. أنا لا ألوم القدَر الذي أرسلني إلى هنا. عندما أقدمت على مهمتي، أقدمت عليها وأنا على دراية كاملة بالعواقب، لأنني أنا أيضًا»، وابتسم للوجوه الشاخصة إلى أعلى للجالسين على مقعد أعضاء الادعاء، وتابع: «أنا أيضًا عليم بالقانون، وأمورٍ أخرى.

يوجد من يتخيلون أن لديَّ رغبةً متأججة في تغيير قوانين هذا البلد؛ وذلك ليس صحيحًا. لا يُمكن تطويع القوانين الوضعية، ذات البنية غير المرنة، حسب وقائع قضية معينة، وهذا صحيح بخاصة عندما تكون مسألة «الوقائع» نقطة خلافية. إن قوانين إنجلترا قوانين جيدة، وحكيمة، وعادلة، ومُنْصِفة. أي إشادة أخرى واجبة أكثر من هذه الحقيقة الوحيدة، وهي أنني أُقر بأنني معرَّض لفقدان حياتي بواسطة تلك القوانين، وأُوافق على العدالة التي تُدينني.»

تابع ببساطة: «ومع ذلك، عندما أنال حريتي من جديد، فسأظل مستحقًّا لحكمك لأنه يوجد بداخلي ما يبين بجلاء أي طريق سأسلكه، وأفضل وسيلة أخدم بها البشرية. إذا قلتَ إنني بانتقائي ضحية هنا وضحية هناك لأدينها، بالغًا فحسبُ أقصى حدود عالم الوضاعة، فأنا نفسي غير عادل — لأنني أترك كثيرين وأُعاقب قليلين — فجوابي أنه مقابل كل رجل أزهقنا روحه، يوجد مائة رجل رجعوا عن غيهم رعبًا من اسمنا وسلكوا الطريق المستقيم؛ فعبرة موت واحد أنقذت الآلاف. وإن سألت جادًّا: هل ساعدتَ في إصلاح البشرية؟ فسأُجيب جادًّا: أجل.»

كان يتحدث طوال هذا الوقت مخاطبًا القاضي.

«سيكون من قبيل الجنون أن تُعيد دولة متحضرة إلى بربرية عصر كان فيه الموت هو جزاءَ كل جريمة أخرى، ولن أُهين ذكاءك بإنكار أنني اقترحت تلك العودة إلى الأيام السيئة. لكن خرج إلى حيز الوجود شكلٌ زائف من النزعة الإنسانية، فقدَ ممثلوها، على ما يبدو، حسَّ القدرة على موازنة الأمور، ورفعوا الخوف من الألم إلى مرتبة العقيدة؛ ونسُوا أن عصر المنطق لم يأتِ بعد، وأن الرجال الذين يُماثلون الحيوان في كل شيء عدا المظهر البشري الخارجي يتشاركون مع الحيوان في انقياده للتقويم التأديبي، إنما يتشاركون معه أيضًا في خوفه الأعمى من الموت، ويُذعنون للوسائل التي تُهدد راحتهم أو حياتهم.»

أشار بيده نحو القاضي.

وصاح: «أنت، يا سيدي، هل يُمكنك أن تأمر بجلد بهيمة كادت أن تقتل أحد بني جنسها، دون أن تتحمل صيحات الغضب المعترضة من الرجال والنساء؟ أيُمكنك أن تحكم على رجل بالموت لارتكابه جريمة قتل وحشية دون أن تجد ألف شخص من نتاج زمننا يصرخون ويُهرَعون هنا وهناك كالنمل، باذلين قصارى جهدهم لإطلاق سراحه؟ دون مجموعة من المشفقين، الذين لم تُؤثر فيهم ضحية وحشيته المشوهة؟ إنهم في الواقع يقولون: «القتل، القتل المتعمد والعنيف الذي يقترفه الإنسان هو قضاء وقدر؛ لكن عقوبة الإعدام الشرعية هي قتل عمدي.» لذلك لا أتوقع تعاطفًا مع الوسائل التي اعتمدها رجال العدالة الأربعة. لقد مثلنا قانونًا، ونفذنا أحكامنا على وجه السرعة. لقد قتلنا عمدًا إن شئت القول. وفقًا لروح ونص قوانين إنجلترا، ارتكبنا القتل العمد. أنا أُقر بعدالة إدانتي. ولا أرغب في تخفيف ظروف جريمتي. ولكن مع ذلك فإن الفعل الذي ليس بوُسعي أن أُبرره بما يُرضيك، أجده أنا مبرَّرًا.»

عاد للجلوس.

سأل أحد المحامين المدعيَ العامَّ، وهو يميل عليه من الخلف:

«ما رأيك في ذلك؟»

هز السير ويليام رأسه.

قال بقنوط: «أمر محير.»

كان العرض المجمل الذي قام به القاضي هو أوجز عرض موثَّق.

كان على المحلَّفين أن يُقنعوا عقولهم بأن السجين ارتكب الجريمة التي كان متهَمًا بها، وأنهم يجب ألا يُزعجوا أنفسهم بأي جانب آخر من جوانب القضية غير ذلك الجانب الواضح أمامهم. هل كان الرجل الماثل في قفص الاتهام مسئولًا عن قتل ليبسكي؟

ودون أن تُغادر هيئة المحلفين منصتها، أصدرت حكمها.

«مذنب!»

لاحظ أولئك المعتادون على تلك المشاهد أن القاضيَ أثناء إصداره الحكم بالإعدام قد أسقط الكلمات البارزة والكئيبة التي تُصاحب عادةً الحكم الأخير للقانون، وأنه تكلم أيضًا دون انفعال.

قال جاريت: «إما أنه سيحصل على إيقاف لتنفيذ الحكم أو أن القاضيَ متيقن من أنه سيهرب، والتفسير الأخير يبدو سخيفًا.»

قال رفيقه وهما يعبران ببطء مع الحشد إلى الطريق المُعَبَّد: «بالمناسبة، من كان ذلك المتأنق الذي جاء متأخرًا وجلس مع هيئة المحكمة؟»

قال تشارلز: «ذاك كان صاحب السمو أمير الإسكوريال. إنه في لندن حاليًّا يقضي شهر العسل.»

قال جيمي: «أنا على علم بذلك، لكنني سمعته يتحدث إلى مأمور تنفيذ الأحكام قبيل خروجنا، وقد استرعى انتباهي أنني قد سمعت صوته من قبل.»

قال تشارلز: «بدا لي كذلك.» قال ذلك بحذر، بل بحذر شديد حقًّا، حتى إنه لم يُلمح مطلقًا لرئيس التحرير بأن الرجل المقنَّع الغامض الذي قدم أدلة نيابة عن جورج مانفريد لم يكن سوى صاحب السمو الملكي.

الفصل الخامس عشر

تشيلمسفورد

عادوا بمانفريد إلى سجن واندزورث ليلة المحاكمة. واستقبله بجدية شديدة مديرُ السجن، الذي كان واقفًا في فناء السجن الدامس وشاحنة نقل السجناء تدخل مع موكبها الذي يُصدر صوت قعقعة.

سأله حين زار الزنزانة في تلك الليلة: «هل تُريد أي شيء؟»

قال مانفريد: «سيجارًا.» فأعطاه مدير السجن علبة السيجار. انتقى مانفريد واحدًا منها بعناية، وأخذ مدير السجن يُراقبه في تعجب.

قال: «أنت رجل غير عادي.»

أجابه: «وعليَّ أن أكون كذلك؛ لأن أمامي محنةً لا يُخفف من شناعتها إلا تفردُها.»

قال مدير السجن: «سيكون ثمة التماسٌ لإيقاف التنفيذ، بالطبع.»

قال مانفريد ضاحكًا: «أوه، لقد أوقفت ذلك، أوقفته بسخرية لاذعة، ومع ذلك فأنا على ثقة من أنني لم أُثبط عزم «المؤمنين العقلانيين» الذين جعلت لهم بعد وفاتي مخصصات كبيرة.»

من جديد قال مدير السجن في تأمل: «أنت رجل غير عادي. بالمناسبة يا مانفريد، ما الدور الذي تلعبه السيدة في هروبك؟»

تساءل مانفريد بذهول حقيقي: «السيدة؟» «أجل، المرأة التي تتردد كثيرًا على هذا السجن من الخارج؛ سيدة متشحة بالسواد، وكبير الحرس يقول لي إن جمالها لا مثيل له.»

قال مانفريد بوجه مكفهر: «آه، السيدة. كنت آمُل أن تكون قد ذهبت.»

جلس يُفكر.

قال مدير السجن: «إن كانت صديقة لك، فلن يكون من الصعب أن تحصل على إذنٍ بمقابلتك.»

قال مانفريد بسرعة: «لا، لا، لا، يجب ألا تكون ثمة مقابلة، هنا على الأقل.»

قال مدير السجن لنفسه إن احتمال المقابلة «هنا» مستبعَد؛ لأن الحكومة كانت قد وضعت خططًا تقضي بنقل سجينهم، الأمر الذي شعر بأن واجبه نحو الدولة لا يسمح له بأن يُبلِغه بشأنه. لم يكن بحاجة، لو كان يعرف، إلى أن يجعل المخطط سرًّا.

خلع مانفريد الحذاء غير الملائم الذي كانت إدارة السجن قد منحته له — كان قد استبدل بملابسه ملابس المدانين لدى عودته إلى السجن — واستلقى في سريره بملابسه دون أن يخلعها، وتغطى ببطانية.

اقترح عليه أحد الحراس المراقبين باقتضاب أن يخلع ملابسه.

قال: «الأمر لا يستحق العناء، من أجل مدة وجيزة جدًّا.»

ظنوا أنه يُشير مجددًا إلى الهرب، وتعجبوا قليلًا من جنونه. بعد ثلاث ساعات عندما جاء مدير السجن إلى الزنزانة، أذهلتهم درايته.

قال مدير السجن: «آسف على إزعاجك، ولكنك ستُنقَل إلى سجن آخر، عجبًا، أنت لم تخلع ملابسك!»

قال مانفريد، وهو يُزيح عنه الغطاء بكسل: «لا، ولكني ظننت أن النقل سيكون في وقت أسبق.»

«كيف عرَفت؟»

قال السجين، وهو يتمطى: «بشأن النقل، أوه، عصفورٌ صغير أخبرَني.» «إلى أين؟ بينتونفيل؟»

نظر إليه مدير السجن بغرابة بعض الشيء.

قال: «لا.»

«ريدينج؟»

قال مدير السجن باقتضاب: «لا.»

عبس مانفريد.

قال: «أينما كان، أنا مستعد.»

أومأ برأسه محييًا الحارس المرافق وهو يُغادر وودع مدير السجن وداعًا غير رسمي ولكن بابتهاج على محطة السكك الحديدية الخالية حيث كانت قاطرة، تجر مقطورة ذات فرامل يدوية، تقف وحيدة منتظرة.

قال: «باعتقادي أنها حالة خاصة.»

مد مدير السجن يده له ليُصافحه وهو يقول: «وداعًا، يا مانفريد.»

لم يمد مانفريد له يده، واحمرَّ وجه مدير السجن خجلًا في الظلام.

قال مانفريد: «لا أستطيع أن أُصافحك، لسببين؛ الأول أن كبير الحرس الرائع قد وضع الأصفاد في يديَّ، من الخلف ...»

قال مدير السجن وهو يضحك قليلًا: «لا يُهم السبب الآخر.» ثم أضاف وهو يضغط على ذراع السجين: «لا أتمنى للرجل الآخر أي أذًى، ولكن لو تصادف أن تحقق ذلك الهروب العجيب الذي تحدثتَ عنه، فإنني أعرف ضابطًا محترمًا في مصلحة السجون لن يستاء لذلك كثيرًا.»

أومأ له مانفريد برأسه، وبينما كان يصعد إلى القطار قال:

«تلك السيدة، إن رأيتها، قل لها إنني ذهبت.»

«سأفعل، ولكن يُؤسفني القول إنني قد لا أُخبرها إلى أين.»

قال مانفريد والقطار يتحرك: «هذا يرجع إلى تقديرك.» أنزل الحراس الستائر، واستغرق مانفريد في النوم.

استيقظ ويد كبير الحرس على ذراعه وخرج إلى الرصيف وضوء النهار يبزغ. فتش بعينه السريعة الملاحظة في لوحة الإعلانات في محطة القطار. كان سيفعل هذا عمومًا؛ لأن من شأنهم أن يُطلِعوه على المكان الذي كان فيه، بافتراض أنه لسببٍ ما كانت السلطات ترغب في إخفاء وجهته عنه. لكن كان لديه اهتمام خاص بالإعلانات في هذه اللحظة. كانت محطة القطار مغطاة بملصقات لبائع متجول لبضائع رخيصة؛ وهو نوع غير معتاد من الإعلانات على لوحات الإعلانات الصارمة لمحطة قطار. ملصقات ضخمة حماسية كُتِب عليها «كل شيء على ما يُرام»، وبخط أصغر تحته كُتِب «حتى الآن». وكان مكتوبًا على الملصقات الصغيرة «اكتب إلى قريبتك في لندن، وأخبرها بصفقة جيبسي جاك تلك»، إلى آخره. وكُتِب على ملصق آخر «اتبع القواعد!» وبينما كان ينزل على السلالم لاحظ في الجهة المقابلة للمحطة دليلًا آخر على هذه النزعة المبالغ فيها للبضائع الرخيصة؛ إذ كانت توجد لافتتان كبيرتان مضيئتان واضحتان للعيان، وكلتاهما في الشأن نفسه. في ظلمة العربة المقفلة المغطاة بالستائر، ابتسم مانفريد ابتسامة عريضة. حقًّا لم يكن ثمة حدٌّ لبراعة ليون جونزاليس. في صباح اليوم التالي عندما زاره مدير سجن تشيلمسفورد، أعرب مانفريد عن عزمه كتابةَ خطاب إلى قريبه، في لندن.

تساءل بويكارت: «هل رأيته؟»

قال ليون: «مجرد لمحة.» وسار إلى نافذة الغرفة ونظر إلى الخارج. أمامه مباشرة وقفت الواجهة القاتمة للسجن. سار عائدًا إلى الطاولة وصب لنفسه فنجانًا من الشاي. لم تكن الساعة السادسة قد حانت بعد، لكنه كان مستيقظًا معظم الليل.

قال وهو يرتشف السائل الشديد السخونة: «إن وزير الداخلية غير متحفِّظ في مراسلاته، وهو عمومًا رجل غير حريص للغاية.» كان ذلك فيما يتعلق بمجيء مانفريد.

«لقد زرت منزل فخامته مرتَين الليلة الماضية، وحصلت على الكثير من المعلومات المذهلة. أتعرف أن ويلينجتون، رئيس الغرفة التجارية، كان قد أقام «علاقة غرامية»، وأن لوردًا صغيرًا في البحرية الملكية يُعاقر الخمر كالإسفنجة، وأن مستشار الخِزانة يكره وزير الحربية، الذي سيُثرثر كثيرًا، وأن ...»

سأله بويكارت: «هل يحتفظ بمفكرة يومية؟» فأومأ الآخر بالإيجاب.

«مفكرة يومية مليئة بشائعات تُساوي آلاف الجنيهات، مقفلة بقفل رخيص. إن منزله مجهز بنظام ماجنو سيلي لأجهزة الإنذار ضد السرقة، ولديه ثلاثة من الخدم.»

قال بويكارت: «لقد أُحِطتَ علمًا بكل شيء تقريبًا.»

قال ليون بامتعاض: «عزيزي بويكارت، إن لديك طريقةً في الحصول على أروع المعلومات مني دون أن تُكافئني بمواقف الإطراء التالية؛ أولًا: الاندهاش الميال للشك. ثانيًا: التعجب المنتشي. ثالثًا: الإعجاب الممزوج بالإكبار.»

ضحك بويكارت بغير تحفظ؛ وكان ذلك حالًا غير معتاد.

«لقد توقفت عن التعجب من براعتك المتميزة.» قال ذلك متكلمًا بالإسبانية، اللغة التي كان هذان الرجلان يستخدمانها دائمًا عندما يكونان بمفردهما.

تابع بويكارت: «كل هذه الأمور تفوق قدراتي، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقول، مع ما أتسم به من بطء في التفكير، إنني كسول في الفعل.»

ابتسم ليون.

كان العمل الملقى على كاهل كلٍّ منهما في الأسابيع القليلة الأخيرة ثقيلًا. لم يكن تحضير كتاب «ثلاثة أشهر في المغرب» مهمةً سهلة. شكلَت الكلمة الأولى من كل فقرة سابعةٍ الرسالةَ التي كان عليه أن ينقلها إلى مانفريد؛ وكانت رسالة طويلة. بعد ذلك جاءت مهمة طباعته، وترتيب مسألة نشره الفوري، ووضع الكتاب في قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، والدفع به عمومًا ليُصبِح على مرأًى ومسمعٍ من جمهور غيرِ مقدِّر. وكما يختزن

البحارة أحزمة النجاة للطوارئ المحتملة، كذلك كان رجال العدالة الأربعة قد خزنوا، في كل بلد، أغراضَ الإنقاذ التي يحتاجون إليها. كان بويكارت، الذي قام بزيارات كثيرة بالطائرة إلى ميدلاندز، يجلب معه من وقت إلى آخر أجزاءً غريبة من آلة. كان حمله الأخف هو حقائبه، أما الحمل الأثقل فكان يُهَرِّبه إلى تشيلمسفورد في سيارة ذات هيكل قوي.

لحسن الحظ كان المنزل المواجه للسجن معروضًا للبيع، وكان الوكيل، الذي أدار عمليات التفاوض السريعة التي أسفرت عن نقل ملكيته، قد ذكر سهوًا في حديثه عن معلومة أن الزبائن كانوا يأمُلون في إقامة جراج على طريق كولشيستر يكفل لهم نسبة معقولة من حركة السيارات في إسيكس. وعزز وصول هيكلَين مطليَّين غير مصقولَين هذه النظرة لمشروع الملاك الجدد. كان هؤلاء القادمون الجدد أناسًا مُغامرين، وأُذيع سر «على الطريق» مفاده أن جيبسي جاك، الذي كانت قافلته تمر بضائقة، وعلى وشك الحجز عليها، قد وجدت دعمًا ماليًّا على أيديهم. على الرغم من ذلك احتج جاك بشدة على الاقتراح السخيف بأنه يجب أن يُفتَح في تشيلمسفورد في موسم غير مُواتٍ، وأعرب عن ازدرائه الشديد للدعاية المبالغ فيها للمدينة. وكذلك لم يُوافق على صياغة الملصقات، التي فُوجِئ بأنها أخفُّ مما تدعو إليه الطبيعة الصاخبة لمشروعه الترفيهي.

قال السيد بيتر سويني وسط عائلته: «إن آل هيكفورد هؤلاء سيُمنَون بالفشل.» كان مقيمًا فيما يُعرَف باسم «فيث هوم» (أو «بيت الإيمان») وهي فيلا مزخرفة على طريق كولشيستر. وبالمناسبة، قبل استحداثه العظيم الأهمية لحركة «المؤمنين العقلانيين»، كانت الفيلا تحمل الاسم الأكثر فخامة «بالاس لودج».

«إنهم لا يمتلكون أي قدرة تِجارية، ويُفرِطون في تناول الكحوليات.» لم تكن لغة بيتر خالصة ولا مهذبة بالنسبة إلى الكاهن الأكبر لمذهب ديني جديد. وأضاف بغموض: «وليس لديهم التهذيبُ المعتاد للخنازير.» وتابع بسخط: «لقد ذهبت بالعريضة إلى هناك اليوم، والرجل الذي فتح الباب! يا إلهي! يا له من منظر! لقد بدا وكأنه كان مستيقظًا طوال الليل، فقد كانت عيناه حمراوَين، ووجهه شاحبًا، وكان جسده كله يهتز.»

قلت له: «صباح الخير، يا سيد هيكفورد. لقد جئت بشأن العريضة.»

قال: «أي عريضة؟»

قلت: «العريضة المقدمة من أجل الرجل المسكين القابع في سجن تشيلمسفورد، المحكوم عليه بالإعدام، وهو قتل شرعي.»

قال لي: «اذهب إلى الجحيم.» كان هذا ما تلفَّظ به حرفيًّا، «اذهب إلى الجحيم.» كنت أشعر بالاستياء لدرجة أني سرتُ على الفور مبتعدًا عن الباب، لم يعرض عليَّ حتى

الدخول، وما إن وصلت إلى آخر الحديقة الأمامية، صاح قائلًا: «لماذا تُريدون إيقاف تنفيذ الحكم عليه؟ لم يترك لكم قدرًا ضخمًا من المال؟»

كان السيد بيتر سويني ثائرًا للغاية وهو يُكرر هذا المقطع من السخرية القاسية.

قال بيتر بوقار وبطريقة مثيرة للإعجاب: «يجب ألا يُسمَح لتلك الفكرة بأن تكبر.»

كان يُقصَد بذلك دحض التلميح الخبيث بأن بيتر رتب مظاهرته اليومية، من الساعة الثانية عشرة وحتى الثانية. كانت توجد قبل ذلك فعاليات كتلك، اجتماعات «حاشدة» تضم فرقًا نُحاسية عند بوابات السجن نفسه، لكنها كانت اجتماعات تافهة عديمة الجدوى مقارنةً بهذه المظاهرات باسم مانفريد.

إن ذكرى «القداس» اليومي ماثلة للغاية في أذهان العامة، وبخاصة العامة في تشيلمسفورد، بحيث لا تحتاج إلى أي وصف هنا. كانت القاعدة المعتادة هي وجودَ حشود يصل عددها إلى ثلاثة آلاف شخص، وأبواق فرقة بيتر تصدح بلا انقطاع، بينما كان صوت بيتر نفسه يزداد غِلظة بتأثير ارتفاع صوته بالتنديد بالوسائل البربرية لنظام من العصور الوسطى.

اعترضت شركة «هيكفورد برادرز»، شركة السيارات الجديدة، على الضرر التي ألحقته هذه المسيرات اليومية على عملهم. وقام ذلك الرجل السكِّير نفسه، والذي كان يبدو في حالة من السُّكر أكثر من ذي قبل، والذي كان وقحًا معه، باستدعاء بيتر وهدده موجهًا له تعليمات وإنذارت. ولم يكن لهذا تأثير على بيتر سوى أنه جعله أكثر صلابة، وفي اليوم التالي استمر الاجتماع ثلاث ساعات.

في السجن، اخترقت الجلبة، التي جرت بالخارج، عزلة زنزانة مانفريد نفسها، وشعر بالرضا عن ذلك.

أبت الشرطة المحلية أن تتدخل وأعادت فتح ذلك الجدل الميئوس منه الذي كان قد تمحور في السابق حول تلك المظاهرات.

وهكذا انتصر بيتر، وازدادت أعداد حشد المتعطلين الذين توافدوا على تجمُّع الظهيرة مع ازدياد الاهتمام بمصير الرجل المدان.

وصدحت الفرقة المُعزَّزة بأفراد آخرين وازداد صوت الطبلة الضخمة علوًّا، وانضم إلى حركة الإيمان العقلاني الكثير من المهتدين الجدد.

في أحد الأيام كان ثمة متفرجٌ اجتذبه الفضول واقفًا عند طرف الحشد. لم يستطع أن يرى الفرقة من الموضع الذي كان واقفًا فيه، لكنه أبدى ملاحظة رائعة؛ لم تكن سوى رأي إجمالي في عضو مهم في الأوركسترا.

قال المنتقِد المجهول: «إما أن طرق ذلك الرجل على الطبلة غير متناغم مع الباقين، أو أنه توجد طبلتان.»

استمع الرجل الذي وجَّه إليه تعليقاته بإنصات، ووافقه عليها.

كان الحشد قد استدار عائدًا إلى السور الذي كان أمام البناية التي تضم مصنعَي السيارات، ومع تفرق الحشد — «تقدمت» جماعة بيتر بشكل رائع إلى المدينة قبل أن تتفرق — جاء واحد من المستأجرين الجدد إلى الباب ووقف، مراقبًا الحشد الذي كان آخذًا في التبدد. سمع هذه الملاحظة المتعلقة بتوقيت قارع الطبل الضخم وأحنقته. وعندما عاد إلى غرفة الجلوس، حيث كان بويكارت الشاحب الوجه يرقد مستلقيًا على أريكة، قال:

«يجب أن نكون حذرين.» وأعاد على مسامعه الحديث.

خلد هذان الرجلان إلى الراحة حتى الساعة السادسة — إذ يجب أن ينال الرجلان اللذان كانا يعملان تحت ضغط هائل قسطًا من الراحة — ثم أخذا يتخلصان من آثار عملهما.

عند منتصف الليل توقفا عن ذلك، واغتسلا ليُزيلا عنهما بقع أعمالهما.

قال بويكارت: «لحسن الحظ، ما زال لدينا غرف كثيرة لنملأها؛ يُمكن لغرفة الجلوس أن تحتمل المزيد، ونحتاج إلى غرفة الطعام، وغرفة الصباح ممتلئة عن آخرها. يجب أن نبدأ بالغرف العلوية غدًا.»

مع متابعتهما للعمل، باتت الحاجة إلى الحذر أوضح أكثر فأكثر؛ لكن لم يُعطل أي حدث تقدمَهما، وفي الأيام الثلاثة السابقة على التاريخ المحدد للإعدام، بينما كان الرجلان يدخلان غرفة المعيشة التي كان بها القليل من الأثاث، نظر أحدهما إلى الآخر عبر المائدة غير المغطاة التي كانت تفصل بينهما، وتنفَّسا الصعداء شاكرين الرب؛ لأن العمل أوشك على الانتهاء.

قال السيد بيتر سويني: «أولئك الأشخاص ليسوا بالسوء الذي تصورته. لقد جاءني أحدهم اليوم وأبدى اعتذاره. كان يبدو في حال أفضل أيضًا، وعرض أن يُوقِّع على العريضة.» كان بيتر يُعطيك دومًا الانطباعَ أثناء كلامه أنه يستخدم كلمات تبدأ بحروف كبيرة.

قال ابنه، الذي كان يتمتع بعقل يتعامل مع الأمور المادية: «أبي، ماذا ستفعل بأموال مانفريد؟»

نظر إليه والده بصرامة.

قال باقتضاب: «سأُكرسه للقضية.»

قال الابن البريء مؤكدًا كلامه: «ذلك قرارك أنت، أليس كذلك؟»

ترفَّع بيتر عن الإجابة في ازدراء.

تابع يقول: «هؤلاء الشبان قد يفعلون أسوأ مما فعلوا. إنهم أكثر احترافية مما ظننت؛ فقد أخبرني كهربائي المدينة أنهم قد حصلوا على تيار كهربائي في أعمالهم، وأن لديهم محركًا غازيًّا صغيرًا أيضًا، ومن الطريقة التي كان أحدهم يتعامل بها مع سيارة كبيرة اليوم على طريق لندن، يدهشني أن لديهم بعضَ المعرفة بمجال تشغيل السيارات.»

اضطُرَّ جونزاليس، لدى عودته من رحلة تجريبية لسيارته الصاخبة، إلى نقل خبر يتعلق بشيء مقلق.

قال وهو يغسل الوسخ الملتصق عن يدَيه: «إنها هنا.»

رفع بويكارت رأسه وتولى ببصره عن العمل الذي كان يقوم به؛ كان يُسَخِّن شيئًا في بوتقة فوق موقد كهربي.

سأله: «امرأة جراتس؟»

أومأ ليون برأسه إيجابًا.

قال بويكارت: «أمر طبيعي.» وتابع القيام بتجرِبته.

قال ليون بهدوء: «لقد رأتني.»

قال الآخر، بلا اهتمام: «أوه! قال مانفريد ...»

«إنها لن تُعاود الخيانة، أُصدق ذلك، كما أن جورج طلب منا أن نُحسن معاملتها، وهذا أمر.»

(احتوى خطاب مانفريد إلى «قريبه في لندن» على أمور أكثر بكثير مما وقعَت عليه عينا مدير السجن.)

قال جونزاليس بجدية: «إنها امرأة تعيسة؛ كان محزنًا أن أراها عند سجن واندزورث، حيث كانت تقف يومًا بعد يوم أمام البوابة القبيحة وعلى وجهها تلك النظرة المأساوية؛ لا بد أنها تُعاني من عذاب نفسي لا مثيل له وهي ترى أمام عينها نتيجة ما اقترفته يداها.»

قال بويكارت: «إذن أخبرها.»

«بأن ...»

«بأن جورج سيهرب.»

«لقد فكرت في ذلك. أعتقد أن جورج سيرغب في هذا.»

تابع ليون قائلًا: «لقد تبرأت منظمة المائة الحمر منها. لقد أُخْطِرنا بذلك أمس؛ لست متأكدًا من أنها لم تُدَن. أتذكر السيد شميدت، الرجل ذا الوجه المستدير. كان هو من وشى بها.»

هز بويكارت رأسه ونظر إلى أعلى مفكرًا.

قال متحيرًا: «شميدت، شميدت. آه أجل، ثمة شيء ضده، جريمة قتل بدمٍ بارد، أليس كذلك؟»

أجاب ليون بسرعة كبيرة: «أجل.» ولم يتحدثا مجددًا بشأن السيد شميدت القادم من براغ. كان بويكارت يغمس قضبانًا زجاجية رفيعة في المحتويات المتأججة المبقبقة للبوتقة، وراقبه ليون بكسل.

بعد فترة صمت طويلة سأله بويكارت: «هل تحدثت إليك؟»

«أجل.»

ساد الصمت مرة أخرى، ثم تابع ليون:

«لم تكن متأكدة من هويتي، لكنني أعطيتها إشارة المائة الحمر. لم يكن بوسعي أن أتحدث إليها في الشارع أمام المارة. فأغلب الظن أن رجال فالموث كانوا يُراقبونها ليلَ نهار. أنت تعرف حيلة القفاز القديمة للإشارة إلى ساعة الاغتيال. أمسكت بالقفاز ببطء وتوقفت لأنظر بإعجاب إلى ملاءمة إصبع، أو اثنَين، أو ثلاثة أصابع، وهكذا أشرت إليها بأن نلتقيَ في الساعة الثالثة.»

«أين؟»

«في بلدة ويفنهو، كان ذلك سهلًا نوعًا ما أيضًا، يُمكنك أن تتخيلني مستندًا على جانب السيارة أسأل المارة، الذين أبدَوا استعدادهم لمساعدتي، عن الوقت الذي سأستغرقه للوصول إلى ويفنهو، وأنا ألفظ بالكلمة الأخيرة بصوتٍ عالٍ، هل سيستغرق ذلك مني ثلاث ساعات؟ وبينما كانوا يتطوعون بتقديم نصحهم، رأيتها تُشير بعلامة الموافقة.»

همهم بويكارت وهو يعمل.

سأله: «حسنًا، هل ستذهب؟»

قال الآخر، وهو ينظر إلى ساعته: «أجل، سأذهب.»

بعد منتصف الليل، سمع بويكارت، بينما كان في غفوة على كرسيِّه، صوت دمدمة السيارة وفرقعاتها الشبيهة بمدفع جاتلينج الرشاش وهي تدخل المرأب الذي بُني على عجل.

سأل ليون وهو يدخل: «ماذا حدث؟»

قال جونزاليس وهو يتنهد تنهيدة ارتياح: «لقد ذهبت. لقد كانت مهمة صعبة، واضطُرِرت لأن أكذب عليها، ليس بوُسعنا تحملُ تبعة خطر الخيانة. إنها مثل بقية أعضاء منظمة المائة الحمر، تتشبَث بفكرة أن لدينا آلافَ الأشخاص في تنظيمنا؛ وتقبَّلَت قصتي عن اجتياح السجن بالقوة الغاشمة وحدها. كانت تُريد أن تبقى، لكنني قلت لها إنها ستُفسد كل شيء، وستُغادر متوجهة إلى القارة الأوروبية غدًا.»

قال بويكارت بتثاؤب: «لا تملك مالًا، بالتأكيد.»

«لا تملك أي مال، لقد أوقفت منظمة المائة الحمر التمويلات، لكنني أعطيتها ...»

قال بويكارت: «بالطبع.»

«كان من الصعب إقناعُها بأخذه؛ كانت كالمجنونة بين خوفها على جورج، وسعادتها بالأنباء التي أطلعتها عليها، وتأنيب الضمير.»

تابع بجدِّية: «أظن أنها كانت تُكِنُّ مشاعرَ نحو جورج.»

نظر بويكارت إليه.

وقال له بسخرية: «لقد فاجأتني.» وذهب إلى النوم.

عندما أشرق نور الصباح كانا يعملان. كانت توجد آلة يتعيَّن تفكيكها، وباب ثقيل مفتوح يجب إصلاحه، وإطارات جديدة يجب تركيبها في السيارة الكبيرة. بعد ساعة من مظاهرة الظهيرة، سُمِع صوت طرقات على الباب الخارجي. أجاب ليون الطارق ووجد سائقًا مهذبًا. في الطريق المُعَبَّد وقفت سيارة بداخلها راكب واحد.

أراد السائق الحصول على بنزين؛ إذ كان قد نفد من السيارة. ترجل سيده من السيارة وتقدم ليُجري تفاوضًا بسيطًا. وصرف الميكانيكي بكلمة واحدة.

قال بوضوح: «ثمة سؤال أو سؤالان أود أن أطرحهما بشأن سيارتي.»

قال ليون: «تعالَ إلى الداخل، يا سيدي.» وأرشد الرجل إلى غرفة الجلوس.

أغلق الباب واستدار إلى الزائر الذي كان يرتدي معطفًا من الفراء.

سأله بسرعة: «لماذا أتيت؟ إنه خطر رهيب، عليك.»

قال الآخر ببساطة: «أعرف ذلك، لكن ربما يكون ثمة شيء أستطيع فعله، ما الخطة؟»

أطلعه ليون عليها بكلمات قليلة، وسرت في جسد الشاب رعدة.

قال: «إنها تجرِبة رهيبة على جورج.»

أجاب ليون: «إنه السبيل الوحيد، وجورج يمتلك أعصابًا باردةً كالثلج.»

«وبعد أن، أتتركون ذلك للصدفة؟»

«تعني وجهتنا، البحر، بالطبع. يوجد طريق جيد بين هنا وكلاكتون، والقارب مخبَّأ في مكان آمن بين هناك ووالتون.»

قال الشاب: «فهمت.» وأبدى اقتراحًا.

قال ليون: «ممتاز، ولكن ماذا عنك؟»

قال الزائر البشوش: «سأكون على ما يُرام. أليس كذلك؟»

«بالمناسبة، ألديك خريطة لخطوط التلغراف في هذا الجزء من العالم؟»

فتح ليون درجًا وأخرج ورقة مطوية.

قال: «إن رتبت ذلك الأمر، فسأكون شاكرًا.»

وضع الرجل، الذي كان يُسمِّي نفسه كورتلاندر، علامات بقلم رصاص على الخطة.

«لديَّ رجال يُمكن الوثوق بهم حتى النهاية مهما كانت صعوبة الأمر. سوف تُقْطَع أسلاك التلغراف في الساعة الثامنة، وستُعزَل تشيلمسفورد عن العالم.»

ثم، سار عائدًا إلى سيارته، وهو يحمل صفيحة بنزين في يده.

الفصل السادس عشر

الإعدام

إذا عبرت الباب الصغير الذي يُؤدي إلى مقر الحمال (سيُغْلَق الباب ويُوصَد بالمزلاج من الداخل من خلفك) سيقودك دليلك عبر باب آخر إلى ساحة تحرسها أبوابُ السجن الضخمة في ناحية وبوابة كبيرة من الصُّلب في الناحية الأخرى. عبر هذه البوابة تصل إلى ساحة أخرى، وبالانحراف يمينًا، تبلغ سُلَّمًا درجاته حجرية يقودك إلى المكتب الصغير لمدير السجن. إذا اتجهت مباشرة عبر ممرٍّ ضيق يُطِل عليه المكتب من ناحية، وهبطت درجات سلَّم في الناحية الأخرى، عبر مدخل تحت حراسة جيدة، ستصل فجأة إلى قاعة السجن الكبيرة. في هذا المكان تُوجَد أروقة تمتد على جانِبَي الفِناء، وممرات من الصلب وقناطرُ تمتد بعرضه على مسافات متباعدة. هنا، أيضًا، سلالم مصقولة متقاطعة، والواجهة البيضاء لحائطَي القاعة فيها تجاويفُ لأبواب سوداء صغيرة.

في الطابق الأرضي، كانت الزنزانة الأولى التي عن اليمين وأنت تدخل القاعة من مكتب مدير السجن أكبر وأرحب من الزنازين الأخرى. ثَمة، أيضًا، مَسْحَة من الراحة في شريط الحصير الذي يُغطي الأرضية، وفي مصباح الغاز المكشوف الذي يشتعل في قفصه السلكي ليلَ نهارَ، وفي الطاولة والكرسي، وفي السرير البسيط المريح. هذه هي زنزانة السجين المدان. على بعد اثنتَي عشْرة خطوة من عتبتها يوجد باب يؤدي إلى جزء آخر من الساحة، واثنتا عشرة خطوة أخرى في الممر المُعَبَّد تقودك إلى مبنى بسيط من طابق واحد دون نوافذ، ومدخل واسع بما يكفي ليسمح بمرور رجلَين جنبًا إلى جنب. توجد عارضة يُمكن أن يُربَط فيها حبل، وباب مسحور في الأرضية، وحفرة مبطنة بالطوب، وملونة بطِلاء بلون وردي سلموني.

من زنزانته، كان مانفريد يستمع باهتمام؛ إذ كان صخب التظاهر أمام البوابات يزداد.

وجد مانفريد في الطبيب الذي كان يزوره يوميًّا سيدًا لديه بعض النباهة. إلى حد ما، يُمكننا القول إنه استعاض عن مدير سجن واندزورث برفيق فكري، إذ كان مدير سجن تشيلمسفورد رجلًا متحفظًا، مُشَبَّعًا بتقاليد النظام. أَسَرَّ مانفريد إلى الطبيب برأيه الخاص في «المؤمنين العقلانيين».

سأله الطبيب بدهشة: «لماذا بحق الرب تركت لهم هذا القدر الكبير من المال؟»

أجابه إجابةً مبهمة قائلًا: «لأنني أكره غريبي الأطوار والأشخاص الحمقى المحدودي الرؤية كراهيةً شديدة.»

تابع يقول: «إن سويني هذا ...»

سأله الطبيب: «كيف سمعت عن سويني؟»

قال مانفريد بلا مبالاة: «أوه، إن المرء ليتناهى إلى سمعه الكثير. كان لسويني سمعة دولية؛ إلى جانب أنني ...» وأضاف، دون أن يُحرك عضلة من وجهه: «لديَّ معلومات عن الجميع.»

قال الطبيب بتحدٍّ: «أنا، مثلًا؟»

كرر مانفريد بحِكمة: «أنت. منذ يوم غادرت كليفتون وحتى يوم تزوجت من الآنسة آرباكل من تشيرتسي.»

شهق الطبيب وقال: «يا إلهي الرحيم!»

أوضح له مانفريد قائلًا: «ليس في هذا ما يدعو إلى المفاجأة؛ وقد كنتُ لوقت طويل جدًّا مهتمًّا بموظفي السجون المختلفين في نطاق قريب من لندن، أليس كذلك؟»

قال الآخر: «أظن ذلك.» ومع ذلك فقد كان منبهرًا.

اختلفت حياة مانفريد في تشيلمسفورد بدرجة قليلة جدًّا عن حياته في واندزورث.

ظل روتين حياة السجن هو نفسه؛ التمارين اليومية، الزيارات الشكلية لمدير السجن، والطبيب، والكاهن.

كان مانفريد حازمًا في نقطة واحدة. لم يكن يُريد تلقِّيَ أي خدمات روحانية، ولا حضور أي قُداس. وأوضح موقفه هذا للكاهن المصدوم.

قال: «أنت لا تعلم إلى أي طائفة أنتمي؛ لأنني رفضت أن أُعطي أي معلومات عن تلك النقطة. أنا متأكد من أنك ليس لديك أي نية لتبشيري أو تحويلي عن معتقداتي الراسخة.»

سأله الكاهن: «ما هي معتقداتك؟»

قال مانفريد: «ذلك هو أدقُّ أسراري، ولا أنوي أن أُطْلِع عليه أي أحد.»

قال رجل الدين مرتعبًا: «ولكن لا يُمكن أن تموت كافرًا.»

أجابه بهدوء: «وجهة النظر هي كل شيء، وأنا راضٍ تمامًا عن نفع وسلامة وجهة نظري.» وأضاف: «بالإضافة إلى ذلك، لن ألقى حتفي بعد، ولأني أُدرك ذلك، أُحْجِم عن قَبول المواساة التي لست أستحقها من الرجال الصالحين.»

كان يُمثل للطبيب مصدرًا دائمًا للعجب، بإتيانه على ذِكر أخبار مفاجئة عَلِم بها بطريقة غامضة.

قال الطبيب معترفًا لمدير السجن: «ما يُحيرني، يا سيدي، هو من أين يحصل على معلوماته. الرجال الذين يحرسونه ...»

قال مدير السجن على الفور: «فوق مستوى الشبهات.»

«هل يحصل على أي صحف؟»

«لا، فقط الكتب التي يطلبها. لقد عبَّر منذ بضعة أيام عن رغبته في الحصول على كتاب «ثلاثة أشهر في المغرب»، وقال إنه كان قد انتهى من قراءة نصفه عندما كان في سجن واندزورث، وأراد أن يقرأه من جديد من أجل أن «يتثبت»، لذا حصلت عليه.»

قبل التاريخ المحدد لتنفيذ حكم الإعدام بثلاثة أيام، كان مدير السجن قد أخبر مانفريد بأنه، على الرغم من تقديم التماس، فإن وزير الداخلية لم يرَ سببًا يدعو إلى التوصية بإسقاط الحكم.

أجاب دون انفعال: «لم أتوقع مطلقًا إيقافًا لتنفيذ الحكم.»

أمضى جُلَّ وقته في تبادل الحديث مع الحارسَين. أجبرهما إحساس صارم بالواجب على أن يُجيباه بكلمات أحادية المقطع، لكنه أثار اهتمامهما بشدة بحديثه عن أماكنَ غريبة في العالم. ساعداه قدر استطاعتهما على تمضية الوقت، وقَدَّر هو التضييق الصارم المفروض عليهما.

ذات يوم قال لأحدهما: «أنت تُدعى بيركينز.»

قال الحارس: «أجل.»

وقال للآخر: «وأنت فرانكلين.» ورد عليه الرجل بالإيجاب. هز مانفريد رأسه.

قال: «عندما أنال حريتي، سأُقدم لكما بعض التعويض عن صبركما الذي يُحتذى به.»

أثناء الرياضة الصباحية في يوم الاثنَين — كان يوم الثلاثاء هو اليوم المحتوم الذي حدده كبير مأموري تنفيذ الأحكام — رأى شخصًا مَدنيًّا يسير في الفِناء وتعرَّف عليه، وعند عودته إلى زنزانته طلب رؤية مدير السجن.

قال عندما جاء مدير السجن: «أود مقابلة السيد جيسين.» فتردد في الرد.

سأله مانفريد: «أتتكرم بإحالة طلبي إلى وزير الداخلية تلغرافيًّا؟» ووعده مدير السجن بأنه سيفعل.

وفُوجِئ برد فوري يمنحه الإذن اللازم.

دخل جيسين إلى الزنزانة وأشار برأسه بلطفٍ مُحييًا الرجل الذي جلس على طرف الأريكة.

قال مانفريد: «أردتُ أن أتحدثَ إليك، يا جيسين.» وأشار إليه بالجلوس على مقعد. «أردتُ أن أضع مسألة ستارك في نصابها الصحيح، بصورة نهائية.» ابتسم جيسين.

قال: «لم يكن ثمة بأس في ذلك، كان أمرًا موقعًا من القيصر وموجهًا شخصيًّا لي، لم يكن بوُسعي فعلُ شيء أقلَّ من شنقه.»

تابع مانفريد: «ولكن قد تظن أننا وجَّهناك إلى هذه المهمة لأن ...»

قال جيسين بهدوء: «أعرف لماذا وُجِّهتُ. لقد كان ستارك وفرانسوا تحت طائلة القانون، مُدانَين حسب القانون، وأنتم تُوجهون ضرباتكم فقط لأولئك الذين تغافل عنهم القانون.»

ثم سأله مانفريد عن حال الرابطة، فتهللَت أساريرُ جيسين.

قال بابتهاج: «الرابطة في ازدهار. أنا الآن أُحوِّل لصوص حقائب السفر، كما تعرف، الرجال الذين يُلازمون محطات السكك الحديدية.»

سأله الآخر: «تُحولهم إلى؟»

قال بحماس: «إلى العمل الصحيح، إلى الحمالين الذين كانوا أحيانًا ينتحلون شخصيتهم.» وأضاف بأسًى: «لكنه عمل شاق للغاية، أن تجد صفة للرجال الذين يُريدون أن يسلكوا الطريق القويم وليس لديهم ما يُثبت هُويتهم إلا بطاقة تسريح مشروط.» وبينما كان يقوم من مجلسه ليُغادر، صافحه مانفريد.

وقال له: «لا تفقد حماسك.»

قال جيسين: «سأراك مجددًا.» فابتسم مانفريد.

مجددًا، إن أصابك السأم من تَكرار عبارة «ابتسم مانفريد»، فتذكر أن هاتَين الكلمتَين هما أفضل وصف لمسلكه في تلك الأيام المريعة في تشيلمسفورد.

لم يكن ثمة استخفافٌ في أسلوب معالجته للموقف القاهر. كان سلوكه في المناسبات التي التقى فيها بالكاهن هو سلوك لا يستطيع أكثر الناس حساسيةً أن يستاء منه، لكن حزمه كان لا يُقْهَر.

قال الكاهن بيأس: «من المستحيل فعلُ أي شيء معه. أنا بمثابة طفل حقًّا بين يدَيه. إنه يجعلني أشعر مثل واعظ علماني يُجري حديثًا مع سقراط.»

لم يكن ثمة سابقة للظرف غير العادي، وأخيرًا، بناءً على طلب مانفريد، تقرَّر حذف طقس القداس الديني تمامًا.

فيما بعد الظهيرة، بينما كان يتريَّض، رفع عينَيه إلى السماء، ورأى الحراس، الذين تتبعوا نظره، في الهواء طائرة ورقية صفراء ضخمة، تحمل لافتة إعلانيةً لنوع من إطارات السيارات.

قال بارتجال: «طائرة ورقية صفراء، حسنًا.» وهمهم بلحن ما وهو يسير حول الدائرة الحجرية.

في تلك الليلة، بعد أن خلد إلى الراحة، خلع ملابس السجن الخاصة به وعاد إلى ارتداء البذلة التي قُبِض عليه مرتديًا إياها. ظن أنه سمع وقع أقدام محسوبًا وهو ينعس، وتساءل إن كانت إدارة السجن قد زادت من الحراسة. تحت نافذته بدا صوت أقدام الحرس أنشط وأثقل.

قال في نفسه مخمنًا: «جنود.» وغلبه النوم.

كان دقيقًا في تخمينه. في الساعة الحادية عشرة كان قد نشأ خوفٌ من تحريره، وكانت نصف كتيبة من الحرس قد وصلت بالقطار ليلًا وسيطرت على السجن.

قام الكاهن بمحاولته الأخيرة، وتلقى صدًّا غير متوقع، نظرًا إلى الحرارة المفاجئة التي استُقْبِلت بها محاولته.

قال مانفريد حانقًا: «أرفض أن أراك.» كان أول إبداء يُظهره لنفاد صبره.

«ألم أقل لك إنني لن أُشارك في الحط من شأن قداس مقدس بتحويله إلى مهزلة؟ ألا يُمكنك أن تفهم أنه لا بد أن لديَّ سببًا خاصًّا جدًّا للتصرف بالطريقة التي أتصرف بها؟ أم أنك تظن أنني شخص فظٌّ متجهم يرفض معروفك بداعٍ من ضلال محض؟»

قال الكاهن بحزن: «لم أكن أعرف ما ينبغي أن أظن.» وخفف مانفريد من نبرته وهو يُجيب:

«احتفظ بحُكمك للساعات الأخيرة؛ وعندئذٍ ستعرف.»

تُشير الرواية المنشورة لذلك الصباح الذي لا يُنسى إلى أن مانفريد تناول طعامًا قليلًا جدًّا، ولكن الحقيقة هي أنه تناول إفطارًا مغذيًا، قائلًا لنفسه: «أمامي رحلة طويلة، وأحتاج إلى عافيتي.»

في الساعة الثامنة إلا خمس دقائق احتشدت مجموعة من الصحفيين والحراس خارج باب الزنزانة، وتشكل صف مزدوج من الحراس عبر الفِناء، ووقف الصف الممتد من الجنود الذي أحاط بمبنى السجن في انتباه. في الساعة الثامنة إلا دقيقة أتى جيسين وهو يحمل في يده السيور الجلدية الرسمية. ثم عندما دقت الساعة معلنةً تمام الثامنة، دخل مدير السجن الزنزانة مشيرًا إلى جيسين.

في الوقت نفسه وفي عشرات البقاع المختلفة من البلاد، قُطِعَت أسلاك التلغراف التي تربط تشيلمسفورد ببقية العالم.

كان موكبًا حزينًا، خفف غياب الكاهن قليلًا من هوله، لكنه كان رهيبًا بما يكفي. تَبِعَ مانفريد، المكبَّلَةَ يداه بالسيور الجلدية، مديرُ السجن، وعن يمينه ويساره حارسان، وجيسين يسير في الخلف. قادوه إلى المبنى الصغير الذي لم يكن له نوافذُ وأوقفوه فوق باب مسحور في الأرضية وتراجعوا، تاركين البقية لجيسين. ثم، عندما كان جيسين يضع يده في جيبه، تكلم مانفريد.

قال: «تراجع لحظة؛ فقبل أن يُوضَع حبل المشنقة في عنقي لدي شيء أريد قوله.» فتراجع جيسين إلى الوراء. قال مانفريد ببطء: «إنه، الوداع!»

رفع صوته وهو يتكلم، وانحنى جيسين ليلتقط لفة الحبل التي كانت تُجَرْجِر على الأرض. ثم دونما سابق إنذار، وقبل أن يُرفَع الحبل، أو أن يلمسه أي رجل، فُتِح الباب المسحور في الأرضية محدثًا ضجيجًا، واختفى مانفريد عن الأنظار.

اختفى عن الأنظار بالفعل؛ إذ انطلق من الحفرة إلى أعلى دخانٌ كثيف، جعل الرجال الذين كانوا واقفين في الجوار يتراجعون إلى الهواء الطلق وهم يترنَّحون ويسعلون.

«ما الأمر؟ ما الأمر؟» شق أحد المسئولين طريقه في هياج بين الصحفيين الواقفين على الباب وصاح مُصدِرًا أمرًا.

«بسرعة! خرطوم إطفاء الحريق!»

ما إن سمع الرجال رنين جرس حتى انطلقوا إلى مواقعهم. صاح أحدٌ ما: «إنه في الحفرة.» لكن رجلًا جاء بقناع واقٍ من الغاز ونزل في الحفرة من الجانب. غاب وقتًا طويلًا، وعندما عاد روى ما رآه بطريقة غير مترابطة.

«لقد حُفِر قاع الحفرة، يُوجَد ممر بالأسفل وباب، الدخان، لقد أوقفته، إنها خرطوشة دخان!»

سحب كبير الحرس مسدسًا من جرابه.

صاح: «من هذا الطريق.» ونزل ممسكًا بالحبل المتدلي بيد فوق الأخرى.

كان المكان مظلمًا، لكنه تحسس طريقه، وانزلق إلى أسفل المنحدر الحاد حيث انخفض النفق أسفل سور السجن ومن ورائه انتشر الرجال الذين كانوا خلفه. ثم دونما سابق إنذار اصطدم بعائق وسقط مصابًا بكدمات ومصدومًا.

كان أحد الرجال الأخيرين قد جلب معه مصباحًا، وسرى ضوءُه مرتعشًا في الممر غير الممهد. صاح كبير الحراس في الرجل طالبًا منه أن يُسرع الخطى.

على الضوء رأى أن ما اصطدم به كان بابًا ضخمًا مصنوعًا من رافدة خشبية غير مطلية ومثبتًا بحديد. اجتذبت ورقةٌ اهتمامَه. كانت مثبتة في الباب، ورفع المصباح ليقرأ ما كان مكتوبًا فيها:

النفق بعد هذه النقطة مُلَغَّم.

كان ذلك هو كل ما كان مكتوبًا فيها.

أصدر أمرًا إلى الحارس بحدة قائلًا: «عد إلى السجن.» بوجود ألغام أو من دونها، كان سيُتابع المضي، لكنه لاحظ أن الباب كان شبه منيع.

عاد إلى النور ملطخًا بالطين والعرق يسيل منه جراء ما بذله من جهد.

أعلن باقتضاب: «لقد ذهب! إذا ما استطعنا أن نُخْرِج الرجال إلى الطرق ونضرب طوقًا حول المدينة.»

قال مدير السجن: «لقد تم ذلك بالفعل، لكن يوجد حشد أمام السجن، ولقد فقدنا ثلاث دقائق للمرور عبره.»

كان هذا الرجل المسن الصامت العنيف يمتلك روح دعابة قاتمة، واستدار مخاطبًا الكاهن المضطرب.

«أتصور الآن أنك تعرف لماذا لم يرغب في القداس؟»

قال الكاهن ببساطة: «أعرف، وإذ أعرف، فأنا ممتن.»

شعر مانفريد بنفسه واقعًا في شبكة، وبيدَين تفكَّان السيور عن رسغَيه وتُوقِفانه على قدَمَيه. كان المكان ممتلئًا بأبخرة دخان ذات رائحة نفاذة.

«من هذا الطريق.»

أومض بويكارت، الذي كان ماضيًا في المقدمة، أشعَّات مصباحه الكهربي على الأرض. نزلوا المنحدر بقفزة سريعة واحدة، وساروا مضطربين للأمام عندما حطوا على الأرض؛

وعندما وصلوا إلى الباب المفتوح، توقفوا بينما كان ليون يُغلقه بقوة محدثًا ضجةً وأنزل الأقفال المصنوعة من الصلب في مواضعها.

أظهر مصباح بويكارت جوانب النفق المنحوتة بانسيابية، وعند طرفه الآخر كان عليهم أن يتسلقوا أنقاض آلة مفككة.

قال مانفريد، وهو يُراقب العمل بانتقاد: «ليس سيئًا.» وأضاف: «لقد كان «المؤمنون العقلانيون» مفيدين.» أومأ ليون برأسه.

قال بأنفاس لاهثة: «لولا فرقتهم لكان من الممكن أن تسمع صوت عمل المثاقيب في السجن.»

صعدوا بسرعة على سلم في نهاية النفق، وعبر الممر وصلوا إلى «غرفة الطعام» المبعثرة أرضيتها، والمغطاة بطين مدعوس سُمْكه بوصات.

أمسك له ليون المعطف السميك، فأدخل يدَيه فيه مرتديًا إياه. وشَغَّل بويكارت المحرك.

«حسنًا!» انطلقوا يتخبطون ويرتجون عبر زقاق خلفي وصل بهم إلى الطريق الرئيسي على بعد خمسمائة ياردة جنوب السجن.

عندما نظر ليون إلى الوراء، رأى نقاطًا قرمزية تُجاهد للمرور عبر الحشود السوداء عند البوابات. قال: «الجنود سيُغلقون الطرق؛ إننا على الطريق في الوقت المناسب. انطلِق بأقصى سرعة، يا بويكارت.»

لم يُطِعه بويكارت إلا حين وصلوا إلى الأراضي غير المأهولة، وعندئذٍ انطلق المتسابق العظيم إلى الأمام، وأخذ اندفاع الريح يلطم وجوه الرجال بضربات ناعمة عظيمة.

حالما صاروا في أكثر الأجزاء قفرًا من الطريق، مروا بأسلاك تلغراف كانت متدلية على السياج الشجري.

تراقصت عينا ليون فرحًا عندما رأى هذا المشهد.

قال: «إن كانوا قد قطعوا الأسلاك الأخرى، فقد انتهت المطاردة. ستخرج سياراتهم على الطرق في خلال نصف الساعة وستُلاحقنا؛ ومن المؤكد أننا سنلفت الانتباه، وسيتمكنون من اقتفاء أثرنا.»

وقد لفتوا الانتباه بالتأكيد؛ إذ بينما كانوا يتجاوزون كولشيستر، صادفوا كمينًا للشرطة، وأشار لهم شرطي بالتوقف.

تجاوزوه مخلفين سحابة كثيفة من التراب. بقوا على طريق كلاكتون، وظل طريقهم بلا عوائق حتى وصلوا إلى قطاع غير مأهول حيث كانت عربة مزرعة قد تعطلت وأعاقت التقدم تمامًا.

بابتسامة عريضة، لاحظ سائق العربة ارتباكهم.

قال بابتهاج: «لا يُمكنكم المرور من هنا، ولا يوجد طريق آخر لمسافة ميلين إلى الوراء.»

سأله ليون بسرعة: «أين خيولك؟»

قال الرجل مبتسمًا: «عادت إلى المزرعة.»

قال ليون: «جيد.» نظر فيما حوله، ولم يكن هناك أي أحد على مرمى البصر.

قال: «ارجع إلى الخلف بجانب السيارة.» وأشار إلى بويكارت ليعكس دوران المحرك. «لماذا؟»

ترجَّل ليون من السيارة، وسار بخطوات سريعة إلى الحطام الثقيل الذي كان يعترض الطريق.

انحنى إلى الأسفل، وتفحص الحطام سريعًا، وأقحم شيئًا تحت الكتلة الضخمة. وأشعل عود ثقاب، وثَبَّت الشعلة، وركض إلى الوراء، ممسكًا بالقروي البطيء الحركة وساحبًا إياه معه.

تساءل الرجل: «اللعنة! ما هذا؟» لكن قبل أن يتمكن من الإجابة صدر صوت تحطم يُصِم الآذان، مثل دوي الرعد، وامتلأ الهواء بالحطام.

تفحص ليون الحطام مرةً ثانيةً وأشار إلى السيارة بالتقدم إلى الأمام.

وهو يثب إلى مقعده التفت إلى الريفي المذهول مخاطبًا إياه.

قال: «قل لسيدك إنني سمحت لنفسي بأن أُفجر عربته بالديناميت.» ثم عندما أتى الرجل بحركة كما لو كان يُريد أن يُمسك بذراعه، دفعه ليون دفعةً جعلته يطير في الهواء، وتحركت السيارة مرتجةً فوق المتبقي من حطام العربة.

توجهت السيارة حينئذٍ صوب والتون، وبعد مسيرة قصيرة، انحرفت بحدة في اتجاه البحر.

بعد عشرين دقيقةً انطلقت سيارتان بسرعة مُحدِثتَين ضجيجًا على نفس الطريق، وتوقفتا هنا وهناك من أجل أن يسأل كبيرُ الحرس أحد المشاة العابرين.

وانعطفت السيارتان، أيضًا، في اتجاه البحر وسلكتا الطريق المنحدر.

قال أحد الرجال: «انظر!»

أمامهم مباشرةً، كانت توجد، على جانب الطريق، سيارة. وكانت خالية.

ما إن بلغتها السيارتان حتى وثب ستة حراس من كل واحدة منهما. وتسابقوا عبر المرجة الخضراء حتى وصلوا إلى حافة الجرف الشديدة الانحدار.

لم يكن ثمة أثر للهارب.

لم يكن هناك ما يقطع زرقة البحر الصافية، إلا، على بعد ثلاثة أميال، حيث كان يخت بخاري أبيض جميل ينطلق إلى عُرْضِ البحر.

التفَّ حشد صغير من الناس حول الحراس، يجتذبه مظهرهم.

قال صياد سمك بتعجب: «نعم، لقد رأيتهم، غادر ثلاثة منهم في واحد من هذه القوارب المزودة بمحركات التي تنطلق بسرعة كالبرق. لقد توارَوْا الآن عن الأنظار.»

سارع كبير الحرس يتساءل: «ما تلك السفينة؟» وأشار إلى اليخت المغادِر.

أخرج صياد السمك غليونه من فمه وأجاب: «ذاك هو اليخت الملكي.»

«أي يخت ملكي؟»

قال صياد السمك بطريقة مؤثرة: «يخت أمير الإسكوريال.»

تنهَّد كبير الحرس.

قال: «حسنًا، لا يُمكن أن يكونوا على متنه!»

هنداوي